المشرق

تشرين الاول ١٩٣٩

هل من نزاع

بين علمي الطبيعة وما وراءها ؟

للاب شرل ايلا اليسوعي

« هل قوّض العلم اركان الفلسفة ؟ » هذا عنوان مقال « رنّان » أنشأه « خاصّة للمقتطف » الاغرّ السر اوليفر لدج . ففسحت له المجلة المذكورة ثلاث صفحات من جزء حزيران ، ونفحت منشئه بلقب « شيخ العلماء المعاصرين ».

ولعمري لو كان الفروض من مقتضيات « العلم الحديث » ، لأصابت الرصيفة المرمى ، وجاء اللقب طبقاً للملقَّب . فقد طالعنا المقال اربع مرّات وخمساً ، فلم نستخلص منه سوى عدّة اسئلة ، يطرحها الكاتب فيكاد لا يأتي على واحد منها بجواب شافٍ . ولكن حدّث ولا حرج عمّا في طيّات الاسئلة من الاضاليل المقدَّرة ، التي يجتاز بها ذهن القارئ فيخالها عقائد علمية راهنة لا يسوغ الارتياب حيناً في صحتها ، وان كانت مما لا يقوم عليه برهان ، بل مما يرذله العقل السليم فضلاً عن الفلسفة الحقّة.

من ذلك زعم المتشيّ ان « الكلّ » يسير في سبيل التقدّم الى الكمال النهائي . ومعنى « الكلّ » هنا انما هو الله، فقد حطّوا من قدره ، عزّ وجلّ ، الى حدّ أن جعلوه هو والعالم المخلوق شيئاً واحداً ، يتكيّف بتكيّفاته ولا يتميّز منه البتة ، كأنه تعالى ليس الكمال الثابت الذي لا ينقصه شيء ولا يحتاج ان يكتمل . ومن ذلك ايضاً نسبة التصوّف العقيم الى الحكمة الخالدة ، اي مجموع الحقائق الراهنة الاوّلية التي ما كفر بها احدٌ الّا زاغ عن محجة البصيرة النيّرة . وان سألتَ ما السبيل الى التخلّص من هذا التصوّف الموهوم ، اجابك السر اوليڤر لدج : عليك « بالايمان في ازدياد قيمة الوجود (؟) وفي مقدرة العقل البشري على تفهّم الحقّ المجرّد. » فتعساً للبشرية التي شاءت « الفلسفة الحديثة » ان تجعلها تتردّد بين مزلقتي الايمان المزيّف والتصوّف !

كل هذا وغيره من نوعه تقرأه في « الصفحات الثلاث » ، او في خلال اسطرها ، يجزم به الكاتب او يقدّره أكيداً بدون ما دليل ولا حجة ، كأنه الحقّ الخالص الذي لا شبهة به . وقد استرعت نظري في عجالة السر اوليڤر لدج مشكلة هي في نظره عقدة تكاد لا تحلّ ، وهي مسألة التوفيق بين الفلسفة والعلم الحديث . فهو يزعم ان بينهما نزاع عنيف . ففي رأيه ان الفلسفة — والمراد بها هنا علم ما وراء الطبيعة (*La métaphysique*) — تقرّ وجود العلل وتأثيرها في كيان المعلولات ، والعلم يرى أنّ « زمن العلّة والمعلول قد انقضى » وأنّ جلّ ما يدلنا عليه الاختبار هوَ « تتابع الظواهر الطبيعية » (*La succession des phénomènes*) بعضها لبعض ليس الّا.

ترى هل النزاع الموصوف واقعيّ ام موهوم ؟ هذا ما نريدُ الافصاح عنه موجزاً فيما يلي.

ايضاحات في ماهيّة العلّة وانواعها

أمامك تمثال لناپوليون . أمعن النظر فيه تجد كيانه ، بالهيئة التي يبرز بها لعينيك ، منوطاً بامور اربعة وهي :

١) شكل الامبراطور الذي نُحتَ الرخام على مثاله فصار تمثالًا لـه . فالشكل المذكور له تأثيره في كيان التمثال ، ولذلك يُدعى « علّة صوريّة. »

٢) مادّة التمثال ، وهي الرخام ، لولاها ولو لم تحوّل صورةً لنابوليون ، لمّا وُجد تمثاله . فوجودُه منوطٌ بوجودها ، لذلك سُمّيت « علّة مادّيّة »

٣) النحّات الذي صنع التمثال اذ نظر الى المثال ، قائمًا امام عينيه او مطبوعًا في ذهنه ، فصوّره نقرًا في الرخام ، فأثّر في وجود التمثال بفعله ، فسمّي « علّة فاعلية »

٤) ولا ريب ان النحّات انما نشط للعمل لغايةٍ دفعته اليه ، فتوخّى ، اما ربح المال ، واما احراز المجد ، واما التفنّن ، واما كلّها معًا . فالغرض الذي استفزّه للعمل يُدعى « علّة غائية »

ومن ثم يبدو لك التمثال متوقفًا كيانه الحاضر وصيرورته على هذه الاشياء الاربعة وهي المادة ، والصورة ، والعلّة الفاعلية ، والغاية . ولكل منها في التمثال تأثير خاص يختلف به عن غيره ويقوم به وحده دون سواه.

فالعلة اذن اجمالًا هي كل ما له تأثير حقيقي في كيان غيره ، او كلُّ ما بفضل تأثيره يأتي شيء على ما هو.

ومن ثمّ ترى ايضًا بما تختلف العلّة عن الامر السابق (*antécédent*) وهو ما يحدثُ او يُدرَك قبل آخر يُدعى تابعًا (*conséquent*) . وقد لا يكون للأول ادنى تأثير في كيان الثاني . فالليل مثلًا يسبق النهار ويتبعه ، ومع ذلك فلا يُدعى احدهما علّةَ الآخر . فانهما يتتابعان بدون ما تأثير للسابق في تابعه . وكذا يولد زيد بعد اخيه عمرو ، فلا يُقال ان الاكبر علّة وجود الاصغر.

وتتميّز ايضًا العلّة الحقيقية من الشرط ، وهو ما لا بدّ منه كيما تاتي العلّة الفاعلية عملها . الّا انه لا يؤثّر في كيان المعلول . فان علّة النور في غرفتك هي الشمس الساطعة . واما كون النافذة مفتوحة فهو شرط ضروري ، ولكن ليس الّا.

اخيرًا لا بدّ من تمييز العلة من الفرصة التي تُسهّل فعل الآلة الفاعلية ، ولا شركة لها معها في ايجاد المعلول . فاذا مرّ زيدٌ على مدخل مقهى يغتنم الفرصة عمرٌو ، وهو هناك ، فيدعوه الى شرب الخمرة . فان رضي وسكر ، كان

لسكره علتان : احداهما طبيعية وهي شراهته وانحراف ارادته الحرة ، والاخرى ادبية وهي اغراء زيد له . أما مروره بالمقهى فيجوز ان يسمى سبباً على سبيل التوسع في المعنى ، لكنه ليس في الحقيقة سوى فرصة سانحة .

ومما سبق يتبين انه لا حاجة الى التصوف ، ولا الى الايمان بوحي ما ، لفهم معنى العلة . بل هو العقل السليم المجرد من الاوهام يفهم ما يراد بها ويميزها ليس من معلولها فحسب ، بل منه ومن غيره مما لا تأثير له في وجوده .

وجود العلة الفاعلية خصوصاً

ولكن ترى هل للعلة اجمالاً ، وللعلة الفاعلية خصوصاً ، وجود واقعي بمعزل عن الذهن البشري ، ام هي من مختلقات « التصوف العقيم » ؟

قال تان (Taine)[1] :

اذا ما قلنا انَّ السابق يُحدث التابع فلسنا نعني الصلة الخفية التي يربط بها العلة بالمعلول علماء ما وراء الطبيعة ، ولا القوة الباطنية وغير المادية التي يُدخلها بعض الفلاسفة بين المُحدث والحادث . . . فاننا لا نرى ثمة شيئاً من ذلك . . . وانما نلاحظ تتابعاً ثابتاً . . . فيكفي وجود السابق لكيما يخلفه التابع . . . . »

وعلى الرأي عينه يكاد يكون ستيوارت ميل (Stuart - Mill)[2] وهيوم (Hume)[3] والوضعيون عموماً .

ومرجع مستنداتهم الى انَّ تأثير العلة بالمعلول ، اي فاعليتها ، امرٌ لا تتناوله الحواسّ في الظواهر الخارجية ، ولا يدركه ضمير الانسان فيما يحدث ضمن داخليته . وانما يدلُّ الضمير والحواسّ على تتابع الوقائع فلا سبيل للذهن ان يتناول من القوى المذكورة معرفة ما به قوام العلة الجوهري ، وهو صلة التأثير التي تربطها بالمعلول .

ولا نكير ان كيفية تأثير العلة بالمعلول سرٌّ غامض ، فاننا لا نُدرك «كيف» يتحوّل ما لا وجود له ، من العدم الى الوجود ، ولا كيف يؤتيه فاعله

١) *L'Intelligence, liv. 3, chap 2 – t. II, p. 304*

٢) *Logique, Liv. 3, chap. 5.*

٣) *Essai sur l'Entendement humain, Essai VII, partie 2*

الكيان . ولكن متى كان جهلُ كيفية الشيء دليلاً على عدم وجوده ؟ افننكر انَّ غوَّ جسم الانسان ينشأ عن الأكل لاننا لا ندري كيف يتحوّل الخبز دماً ولحماً وعظماً .

كذلك قد يتقيَّد وجود معلول بامور عديدة يعسر ، بل غالباً يستحيل عليك ، ان تقول ايّها هو علّته الحقيقية . بل قد يرشدك الاختبار والامتحان المتواصل ، ولاسيما اذا تذرعتَ بقواعد العلم الحديث ، الى اكتشاف نواميس طبيعية جزيلة الفائدة . ومع ذلك لا تتوفّق الى ايجاد العلّة الحقيقية للظواهر التي اختبرتها . ترى مثلاً ان الجزر والمدّ يتعاقبان مع توالي ايام القمر على قاعدةٍ محدودة تمكّنك من تنظيم جدول مدقّق ينبئ سابقاً بحدوث كليهما في يوم وساعة ودقيقة معيّنة . ولكن هل القمر نفسه ، ام عامل آخر ، هو علّة الجزر والمدّ الحقيقية ؟ هذا ما لم ينجلِ تماماً للباحثين وقد لا ينجلي ابداً .

على انَّ العجز عن تعيين العلّة لا يترتب عليه عدم وجودها . فان عثرت على قتيل مخضب بدمائه في الشارع ، افتنكر وجود القاتل لانك لا تعلم من هو ؟

وكذا العلم الصحيح لا ينفي وجود العلل وان كان يتعذّر عليه غالباً تعيينها لكل من معلولاتها . بل كثيراً ما لا يهمّه هذا التعيين ، اذ حسبه الوقوف على السوابق التي يليها حادثٌ حسيّ بنوع متواصل لازم ، والظروف التي يتمّ فيها ، فيتمكن من تحديد الناموس الذي يجري عليه هذا الحادث .

ولو انكر العلم وجود العلم لنقض بنفس الفعل ركناً من اركانه . ذلك لانه يستند في مقرّراته الى الاختبار . والاختبار من اكبر الادلة على حقيقة العلل . فهل يكون الاختبار مرشداً اميناً للعالم في استنباط النواميس الطبيعية ، وفي الوقت نفسه خائناً للفيلسوف في هدايته الى واقعية العلل ؟

افلا يشهد لك اختبارك الباطني بلسان ضميرك انك انت عينك علّةٌ حقيقية لامور كثيرة . او لا تشعر ان الحركة في رجليك ويديك عند المشي والشغل ، وفي عينيك عند النظر ، وفي اذنيك عند السمع ، هي ناشئة عن فعل منك ؟ بل القصد وحده ، حتى ان كنت لا تنجزه بعمل خارجي ، لا يمكنك

ان تأتيه دون ان تدرك في الوقت نفسه انك فاعلٌ ومُؤثِّر . اجل ان الضمير المباشر وحده لا يطلعك على التأثير في كنهه ، لكنه يُريك نفسك مؤثِّرًا الكيان في كل عمل تأتيه . ثم يأتي الذهن بقوَّته المجرَّدة فيدرك التأثير في حدّ ذاته .

وما يدلُّنا عليه الضمير فينا تُنبئنا الحواسّ الخارجية عن حدوثه في غيرنا وهنا ايضاً ليس للحواسّ ان تدرك تأثير العلل الخارجة في معلولاتها ، بل للحواسّ ان ترى البشر والحيوان والنبات والجماد تُحدث بعضها في بعض ما قد اختبرناه في ذاتنا . ولا يلبث الذهن ان يُدرك بقوَّته المجرَّدة تأثيرها في كيان معلولاتها المختلفة . فمن يشكّ انَّ علَّة وجود الجرو اسد ولبوة ، وان العنب تنتجه الكرمة ، وان الماء في القدر تسخنه النار المتقدة تحته .

وما ضرّ هذه الحقائق كونها بسيطة بديهية أجمع عليها العموم . فان من مقتضيات العلم الصحيح ان يزيد على كذا حقائق اولية وان يستثمرها طلباً الى غيرها اسمى منها ، لا ان ينقضها ويرذلها بحجّة أنها امتعة مشاعة . فالحقيقة علمية كانت ام عاميَّة ، هي حقيقة لا تكذّبها حقيقة . وممَّا يُؤيّد قولنا هذا أن الذين ، بين الفلاسفة والعلماء ، حاولوا نقض الحقائق الاولى ، تراهم إمَّا يوحّدون الكائن وعدمه ، كما فعل هيغل (Hegel) مثلاً ، وإما لا يعدلون عنها الَّا للاعتصام بايمانٍ جديد ، لو طبقنا عليه مزاعمهم في الايمان الحقيقي ، لكان هذا كحلًا وكان ايمانهم عمًى .

او ليس السر اوليفر لدج يقول : « لكي نتقدَّم ، ونخلص من التصرّف العقيم ، لا بدّ لنا .... شيء من الايمان . »

فليس اذاً العقل السليم ، بل الايمان العقيم هذا ، الذي يرى ، في قضيَّة العلَّة والمعلول ، نزاعاً بين العلم الصحيح والفلسفة الحقة .

الاتلنتيد وكائنها(*)

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

ان الجغرافيين والمؤرخين طالما حاولوا كشف القناع عن حقيقة الأَتلَنتيد ، وبحثوا عن موقع هذه الجزيرة التي ابتلعها البحر ، في بضع ساعات ، ولم يترك منها اثرًا يدلّ عليها ، واكثروا من التفتيش عنها في جوفه. ولمَّا لم يقفوا لها على رسم او اثر ، عدّوا رواية افلاطون حديث خرافة ، ونزّلوها منزلة الخبر المصنوع ، واتَّهموه بانه ابتدعها لأمرٍ ما . من منهم من ذهب الى انه اراد بجزيرته الخيالية قسماً من موريتانية او من بلاد السنغال ؛ ومنهم من جعلها شماليَّ اوربة ؛ وغيرهم عنوا بها اميركة . ولكن الشعراء وحدهم حفظوا في قصائدهم ذكرها ، وما زالوا يعتقدون ان الجاني عليها هو هذا البحر ، بحر الظلمات الذي كان يخافه الملّاحون في القديم ، قبل ان يذلّله كولمب ، ويمرّ بسفنه فوق اثباجه هازئًا ساخرًا ، وان افلاطون الالهي ما خدعهم ولا كان بالمخدوع. ولعلهم صادقون.

لقد هبَّ العلماء في السنين الاخيرة للبحث عن موقع الاتلنتيد ، وجهدوا انفسهم للتوصّل الى معرفة حقيقة امرها ، ولم تتَّفق الى الآن آراؤهم . وقد تراءى لهم ان بقعة من الارض ، او بعض الجزائر الكبرى كانت في قديم الزمان قائمة غربيَّ مضيق جبل طارق ، ثم ساخت في جوف البحر ، وذلك على اثر نكبة هائلة حلّت بها ومحتها من صفحة عالم الوجود ، وأَودَت بكل ما

*) اقتضبنا هذا المقال عن كتاب عنوانه « لمجد الارض » لمؤلفه پيير ترميه.

كان فوقها من سكّان وحيوان ومباني . ولعلّ العلم لن يتوصل الى حلّ هذا المشكل اسوة بمشاكل كثيرة من نوعه ، ومن غير نوعه.

أصل الرواية

ان رواية الأتلنتيد وردت في محاورة من تصانيف افلاطون عنوانها «تيميه» ، حيث كريتياس يخبر عن سفر سولون احد حكماء اليونان السبعة الى سايس بمصر ، واجتماع هذا الحكيم مع كاهن مصري ، وتذكير هذا الكاهن له بتاريخ اصل الاثينيين الذي اصبح نسياً منسياً عند اهل اثينا . قال الكاهن :

« لست اكتمك يا سولون هذا السرّ ؛ بل ان نفسي تطيب باجابتك الى رغبتك ، واطلاعك على ما تحوم عليه نفسك حباً لك ولوطنك ، وعلى وجه الخصوص اكراماً لربة اثينا المحامية عنّا وعنكم ، التي بنت وانشأت مدينتك اثينا ، هذه الربة التي تسلسلت من الارض ومن ڤولكان[1] ، وبنت بعد ذلك بالف سنة مدينتنا سايس . وقد مضى منذ انشاء هذه المدينة ، كما تخبر كتبنا المقدسة ، ثمانية آلاف سنة . والآن اريد ان احدثك ، على سبيل الايجاز ، بشرائع الأثينيين ومآثرهم ومفاخرهم التي اتوها في مدة تسعة آلاف سنة مضت منذ قيام اثينا فمن جملة افعال ابناء وطنك العظيمة فعل يفوق الكل ؛ اذ ان كتبنا تخبرنا عن اهلاك اثينا لجيش قوي جداً كان قد خرج من بحر الاتلنتيك ، واغار بأسه على اوربة وآسية ؛ لان هذا البحر كان في ذلك العهد ذلولاً تجري فيه السفن ، وكان فيه ، وراء المضيق الذي تسمونه انتم اعمدة هركول ، جزيرة اكبر من ليبية وآسية . وكان اذ ذاك الاجتياز من تلك الجزيرة الى ما يليها من الجزائر سهلاً ، والاجتياز من هذه الجزائر الى القارة المحيطة بالبحر الداخلي ممكناً . اما ما يلينا من المضيق الذي كلامنا فيه فهو عبارة عن ميناء

---

١) في قصص اديان الوثنيين ڤولكان اله النار ، وابن المشتري وجونون ؛ فلقبح منظره قذفت به امّه من اعالي الاولمب ، فسقط على جزيرة لمنُس ، وبقي على اثر سقطته اعرج ثم اخذ له اكباراً تحت الإتنا وصار يشتغل جا مع الجبابرة الذين هم بعين واحدة في رأسهم ، المدعوين (*Cyclopes*)

ضيق المدخل ، ولكنه في الحقيقة بحر ، والارض المحدقة بـه على التحقيق ارض.

« وكان في جزيرة الاتلنتيد ملوك مقتدرون متسلطون على الجزيرة كلها ، وعلى جزائر كثيرة غيرها ، بل وعلى اقسام من القارة . وكانت سلطتهم تمتد الى ليبية مما يلينا والى مصر والى اوربة حتى تيرّني[1] . وقد تألبت ذات يوم هذه القوة وزحفت لتستعبد بلادنا وبلادكم ، وتبطش بها بطشة واحـدة ، وتخضع لسلطانها الشعوب المقيمة مما يلي المضيق من هذه الجهة . فحينئذٍ ابلى اهل اثينا البلاء الحسن ، واشتهرت قوتهم وبطولتهم ، لانها كانت المتفوّقـة على كل اليونانيين بشجاعة جنودها وفضلهم في فن الحرب . الّا انهم اضطروا الى خذلها ، فخاضت وحدها الاخطار ، وردّت تلك الغارة واحرزت نصراً بعد نصر ، فانقذت من الرقّ والعبودية الشعوب الحرّة ، وضمنت الاستقلال لجميع الساكنين مثلنا في هذا الجانب من اعمدة هركول. وعلى اثر ذلك حدثت زلازل هائلة ، وفيضانات شديدة ، اغرقت في يوم واحد وليلة مشؤومة المقاتلين الذين كانوا عندكم ، وتوارت جزيرة الاتلنتيد في بطن البحر . ومذ ذاك الحين اصبح البحر في تلك الجهات صعب المراس ، لا تستطيع السفن ان تسلكه ، ولا ان تجتاز به لما فيه من الرمال الممتدة في موقع الجزيرة الغائرة[2] . »

فاذا تأمل القارئ هذه الرواية ، ونظر الى مجملها وتفصيلها ، جزم صحتها اذ ان كل ما فيها من الوصف يطابق العقل ويقرب من الصواب . انما يُنكر على الراوي مبالغته في وصف الأتلنتيد بالكبر اكثر من آسية ، فلعلـه كان يجهل مساحة القارة الاسيوية ، او انه اراد نعت جزيرتـه بالاتساع لا غير . امّا بقيّة وصفه فكله شبيه بالصواب . فلا عجب اذن من وجود جزيرة كانت قائمة في وسط بحر الظلمات ، كثيرة السكان ، باسطة سلطتها على جزائر اخرى منتشرة حولها ، كانت بمثابة طريق يؤدي الى ساحل افريقية ، ومن هنـاك تمكنت من مدّ فتوحها من الجهة الجنوبية الى ليبية فمصر ، ومن الجهة الشمالية

١) (Tyrrhenie) هي اترورية المعروفة اليوم بتوسكانا.

٢) تصانيف افلاطون ، ترجمة كوزَن (V. Cousin) ، المجلد ١٢ ، ص ١٠٩–١١٢

الى ايطالية فبلاد اليونان . وكذلك يستدلّ من هذه الرواية ان اثينة وحدها قامت في وجه اعدائها الاتلنتيديين وغلبتهم ، وان الطبيعة ساعدتها على تدمير بلادهم ، فنجت ونجّت من غائلتهم . ولا بدّ من ان سكان سواحل البحر المتوسط شعروا بالهزات المسببة عن الزلازل ، ورأوا بام العين طغيان مياه البحر على اثر تلك الجائحة التي أودت بحياة الاتلنتيديين في ساعات قلائل. ولمّا جاوز الملّاحون بعد ذلك المضيق رأوا امام سفنهم رُتباً اي صخوراً متقاربة وآثار اراضٍ مخسوفة ، فعادوا ادراجهم مذعورين مستوحشين من تلك الجهات التي صارت مظهراً للعقاب الالهي.

ثم ان افلاطون وصف في محاورة اخرى عنوانها « كريتياس » تلك الجزيرة الشهيرة ، قال : « نشبت حرب عامّة ، وفقاً للتقليد المصري منذ تسعة آلاف سنة ، بين الشعوب المقيمين من جهة هذا الجانب من اعمدة هركول وبين الشعوب الآتين من ورائها . وكان من جانب اثينا ومن الجانب الآخر ملوك الاتلنتيد. قلنا سابقاً ان هذه الجزيرة كانت اكبر من آسية وافريقية ، ولكن البحر اقلد عليها على اثر زلزلة ، فلم يبقَ في موضعها سوى رمال تعوق الملاحة ، وتجعل السفر في البحر من وراء الامكان.»

على ان كريتياس زاد التقليد المصري ايضاحاً في شأن اصل الاتلنتيد التي وقعت حصة الاله نبتون فاسكن فيها اولاده العشرة الذين ولدتهم له امرأة من نسل البشر . ثم وصف مهد السلالة الاتلنتيدية قال : « انه سهل قريب من البحر ينبسط في وسط الجزيرة ، وهو اخصب السهول ؛ ودارة تمتدّ الى البحر ، ولكنها منفتحة من الجانب الجنوبي فتقي ذلك السهل نفحات القرّ الشمالية. وفي وسط تلك الجبال الجميلة كانت قرى حسنة خصبة حافلة بالسكان؛ وفي السهل كانت مدينة جميلة قصورها وهياكلها مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء والحمراء ، التي كانت تستخرج من جوانب الجزيرة . وكان فيها معادن من كل نوع نافعة للانسان ؛ وكانت اطراف الجزيرة واقفة عموداً مشرفة على البحر العجّاج[1] .»

١) تصانيف افلاطون المجلد ١٢ ، ص ٢٤٧ وما يليها.

وهذا الوصف يطابق ايضاً كل المطابقة المنكشف في وقتنا الحاضر من الارض في جزائر أسور حيث الربيع الدائم ، والحجارة البيضاء الجفية والسوداء والحمراء المتكونة من الحمم التي قذفتها جبالها النارية في الاعصر الخالية .

هذه هي الاتلنتيد كما وصفها افلاطون ، وهذا هو تاريخها وما حل بها من البلاء . وقد بقي ذكرها محفوظاً في عقول سكان سواحل البحر المتوسط ، وذكر نكبتها تيوبومب (Théopompe) ملك سبرطة ، ومرساوس الروماني ولكن رواية افلاطون امتع واتم .

رأي الجغرافية وعلم طبقات الارض

ماذا يقول العلم في هذا الانخساف ، اهو ممكن مع قرب العهد به وما حكمه في وقوعه فجأة واتساعه وامعان هذه الجزيرة في قلب البحر ؟

فلننظر اولاً في مستندات الجغرافية بشأن المحيط الاتلنتيكي حيث وقعت هذه النكبة .

اننا اذا فرضنا ان سفينة تخرج من مضيق جبل طارق ، وتتجه الى الغرب ولا تزال تسير سيراً مستقيماً ، فانها بعد طي شقة ٦،٤٠٠ كيلومتر ، تبلغ شواطئ اميركة الشمالية عند رأس هتراس بالولايات المتحدة ، ولا تعرج في طريقها على ارض منكشفة ، بل تنسل بين مادرة واسور ولا تراها ، وتتنكب عن جزائر البرمود وتتركها بعيداً الى الجنوب ، وفي اثناء المسير لا يرى ركابها لا قعر اليم ولا نتوآته . ولكن اذا مالت الى الجنوب الغربي ، ثم انحرفت الى الشمال الغربي ، وبعد ذلك رجعت الى الجنوب الغربي ، وعرجت على مادرة واسور والبرمود ، وكان مع اهلها مرجاس لسبر غور البحر ، تحققوا ان الاعماق فيه متفاوتة متباينة ؛ اذ ان عمقه عند جبل طارق ٤٠٠٠ متر ، ثم يعلو عند مادرة ، ثم ينخفض فيكون عمقه ٥٠٠٠ متر وذلك بين مادرة واسور من جهة الجنوب ، ثم يعلو الى ١٠٠٠ متر على مقربة من هذه الجزائر ويظل عمقه بين ١٠٠٠ متر و ٤٠٠٠ متر ؛ ولكنها في الجنوب والجنوب الغربي من اسور ، تصادف نتوآت بعضها قريب من سطح البحر . ولا يلبث ان ينخفض الى

٥٠٠٠ او ٦٠٠٠ متر ، ألا انه يعلو بغتة ازاء البرمود ولا يزال عمقه ٤٠٠٠ متر الى قرب السواحل الاميركية ، ثم يعلو الى الشاطئ.

فلو تمكن الآدمي من نزح هذا البحر الاتلنتيكي ، او من تجفيفه ، لتراءى لعينيه وطاءان او غوران متقابلان محاذيان الشاطئين ، ممتدان من الشمال الى الجنوب بين نشز قائم في وسطهما ؛ غير ان الوطاء المحاذي شاطئ العالم الجديد اعرض واعمق يتخلله ارض ذات كسور واودية ووهاد اعمق من السواحل بستة الاف متر ؛ بل قد لا يخلو قاعه ايضاً من اوتاد ونشوز ، منها نشز يباري بعلوه جزائر البرمود . اماَّ الوطاء الشرقي المحاذي شواطئ اوربة وافريقية فهو اضيق من الاول واقل عمقاً منه ؛ ولكن تضاريسه ونشوزه اكثر ، فمنها ما هو قوي متين كنشوز الجزائر الخالدات والراس الاخضر ، ومنها ما هو دقيق خوَّار كنشوز مادرة . هذا وان النشز القائم بين الوطاءين اشبه براس مرتفع عرضه نحو ١٥٠٠ كيلومتر ، وهو كثير التضاريس والمغامض ولاسيما في جوار أسور ، بل ان هذه الجزائر ما هي الاَّ عبارة عن شعاف متفرعة من هذا الرأس.

ثم اننا اذا وجهنا النظر الى علم طبقات الارض واستخلصنا زبدة اقواله وآرائه ، ظهر لنا ان جهة المحيط الاتلنتيكي الشرقية على طولها عبارة عن منطقة بركانية عظيمة متسعة ؛ وذلك من اجل كثرة البراكين في الوطاء المحاذي للساحل الافريقي والاوربي ، وفي القسم الشرقي من النشز القائم في الوسط ؛ اذ ان اكثر النشوز المنكشفة في شكل جزائر بركانية او انها براكين.

فهذه جزيرة غوغ[١] ، وتريستان اكونية[٢] ، والقديسة هيلانة ، والصعود[٣] ، وجزائر الرأس الاخضر ، والخالدات ، ومادرة الكبرى والجزيرات التي حولها

---

١) جزيرة صغيرة واقعة الى الجنوب الغربي من راس الرجاء الصالح.

٢) ثلاث جزائر صغيرة واقعة الى الشمال الغربي من جزيرة غوغ ، وقد سميت باسم تريستان أكونية البرتوغالي الذي عثر عليها وهو ذاهب الى الهند سنة ١٥٠٦.

٣) جزيرة صغيرة واقعة الى الشمال الغربي من جزيرة القديسة هيلانة ، والى جنوب خط الاستواء.

وجزائر اسور ، وايسلندة ، وجزيرة يوحنا ماين[1] ، فكل هذه الجزائر او اكثرها تكوّنت من الحمم التي نفثتها البراكين في قديم الزمان ؛ اذ ان آثار الحمم وُجد على عمق ثلاثة الاف متر في خط يمتد من اسور الى اسلندة على مسافة ٨٥٠ كيلومترًا الى شمالي اسور . وقد اثبت احد الملاحين سنة ١٨٣٨ وجود بركان تحت البحر عند خط الاستواء ، على مقربة من الدرجة الثانية والعشرين من درجات الطول الغربي ، اي على الخط الواصل جزيرة الصعود بجزائر الراس الاخضر ؛ ورأى بخارًا حارًا ينبعث من الماء ؛ ثم ظهر نتوء في عمق البحر غير النتوءآت المعروفة . على انه لم يزل في هذه الجزائر التي تقدم ذكرها جبال نار في حدّة نشاطها ، والمنطفئ منها يبين كانه بالامس انطفأ ؛ فضلًا عن ان الزلازل فيها كثيرة متواترة . فكم من مدة ظهرت في هذا البحر جزائر جديدة وتوارت اخرى قديمة ؛ ولذلك تشبه منطقة الاتلنتيك الشرقية ، في طولها وعرضها وتواتر انفجاراتها وكثرة زلازلها ، المنطقة التي منها يتكوّن الشاطئ الاميركي الغربي ، وتوافق في جنوبيها الكورديلير ، بل هي شبيهة كل الشبه بوجه الارض .

ولمّا كان جبل النار مصحوبًا دائمًا بانخسافات او انهيار بعض اجزاء القشرة الارضية ، ما زال قاع الاتلنتيك في المنطقة الشرقية ، على عرض ثلاثة آلاف كيلومتر تقريبًا ، عُرضة لافدح البلايا واشد الكوارث . ومصداقًا لهذا القول نروي هذا الحادث : في صيف سنة ١٨٩٨ ، بينما كانت احدى السفن تمدّ السلك البرقي البحري الواصل برست براس كود بالولايات المتحدة ، انقطع السلك على بعد ٨٠٠ كيلومتر الى شمالي اسور . فاخذ البحريون يفتشون عنه بواسطة الكلاليب في عمق ٣١٠٠ متر ، وقد عانوا الشدائد وبقوا اياماً طويلة يجيلون الكلاليب حتى عثروا على السلك . واستدلوا بذلك على ان تلك الجهة من البحر حافلة بالقمم العالية والاودية العميقة ، وثبت عندهم كون القمم صخرية لا حمأة عليها ؛ انما الحمأة راسبة في اسافل الاودية فقط . وقد نشبت الكلاليب مرارًا بالصخور

---

١) جزيرة صغيرة واقعة الى الشمال الشرقي من اسلندة ، وبين هذه الجزيرة ، وغرينلندة وسبتزبرغ ، اكتشفها الملّاح الهولندي يوحنا ماين سنة ١٦١١ .

وانكسرت او تعوّجت ، واخرجت مرارًا بين اسنانها شظايا معدنية كانها تشظّت من عهد قريب ؛ واسفرت الدلائل عن ان تلك الشظايا انفصمت من صخر عارٍ محدّد الاطراف كثير الزوايا يشبه الصخور البركانية ؛ وما زال بعض هذه القطع او الشظايا محفوظًا في متحف مدرسة المعادن بباريس.

على ان العلماء لم ينتبهوا في ذلك الحين لاهميــة تلك الشظايا الشبيهة بحجارة جزائر سندويش . وفي الحقيقة ان تلك الحمم مما تحجّرت وصارت شبيهة بالزجاج الّا بتأثير الضغط الجوي فلو انها كانت دائمًا تحت ثلاثة آلاف متر من الماء ولم تصادف الضغط الجوي ويؤثر فيها ، لتبلورت وظهر عليها آثاره. وقد لاحظ المسيو لاكروا ان حمم جبل بليه متى جمدت في الهواء تكتسب رونقًا زجاجيًا ومتى بردت تبلورت . فيستنتج من هذا ان قاع الاتلنتيك ، على بُعد ٩٠٠ كيلومتر من شمالي اسور ، قد كان مغمورًا بالحمم حين كان منكشفًا ، وانه لمَّا انخسف غاص بكل ما عليه الى عمق ثلاثة آلاف متر في الماء . النتيجة ان هذا الانخساف حدث فجاة بعد تدفق سيل الحمم بوقت قصير ، ولو لم يكن الامر كذلك لكانت الحوادث الجوية والبحرية اكات وسحلت وسفنت وجه تلك الارض ؛ وان الخط الواصل اسلندة بجزائر اسور طرأ عليه تغيّرات من اجل البراكين ؛ وان جزائر اسور ما هي الّا بقايا اراضٍ ساخت منذ عهد قريب يدعوه علماء طبقات الارض « العهد الحالي . »

فيظهر اذن ان البحر الاتلنتيكي قريب العهد . ولربما حدث سيخانات اخرى قبل حدوث هذا السيخان الذي دمّر ما حول اسور . على انه على اثر النتائج العلمية التي توصّل اليها ادوار سوس (Eduard Suess ، ومرسل برتران ، تعلمنا درس سيّادتنا وحل رموز الاستحالات البطيئة والسريعة التي جرت على وجهها ، بعد مرور اجيال لا تحصى ، وتنبهنا لوجود موصل كان يصل شمالي اوربة بشمالي اميركة ، وموصل آخر بين افريقية واميركة ؛ وذلك انه كان في شمالي الاتلنتيك قارّة تشتمل على روسيّة وشبه الجزيرة السكنديناڤية وبريطانية العظمى وغرينلندة وكندة ؛ وفي جنوبيه قارة اخرى قائمة بين افريقية والبرازيل ، تمتد شمالًا الى جبال الاطلس ، وشرقًا الى الخليج الفارسي والى قناة الموزمبيق ،

وغرباً الى جبال الاند وجبـال كولومبية وفنزولة . وكان في تلك القـارة الاتلنتيكية شمالاً سلسلة جبـال اعرض من الالپ ؛ وربما كانت تضاهي في علوها جبال حملايا ؛ وكانت تشتمل على الفوج وبقاع فرنسة الوسطى وبرتانية وجنوبي انكلترة وايرلندة والارض الجديدة وسكوسية الجديدة - او اكادية - وسلسلة الابلاش في الولايات المتحدة. واذا نظرنا الى الساحلين المتقابلين ، ساحل برتانية وساحل كورنوايل (Cornouailles) ، وجنوبي ايرلندة وساحل الارض الجديدة وسكوسية الجديدة رأينا فيها فُرَضاً متناظرة من احسن فُرَض العالم؛ فضلاً عن ان آثار الانفصال هنالك ظاهرة. اذن اطراف البحر الاتلنتيك الشمالية نشأت عن قارة كان يحدق بها قبل خرابها سلسلة جبـال ؛ ولكن لا يُعرف متى حلّ بها الدمار ؛ فلعل دمارها كان قبل دمار الاراضي البركانية التي يشهد عليها الآن جزائر اسور . وكان ايضاً في جنوبي الاتلنتيك قـارة كبيرة ثبتت الوفاً من السنين ثم غارت في اعماق البحر . ولربما وقعت سيخانات متوالية ، اذ ان محاط البحر المتوسط اصابه تغيّرات على توالي الاجيال ؛ لان هذا البحر كان في اواخر العصر الثاني متصلاً بالجزائر الخالدات ، وشاطئه الجنوبي ممتداً اليهـا كما قال المسيو پيتار (Pitard) . امـاً جزائر الراس الاخضر فكانت في الوقت عينه جزءاً من القارة القائمة بين افريقية والبرازيل.

وبينما كان البحر المتوسط في ذلك الموضع يكبر ويتسع من اجل السيخان التدريجي على شواطئه ، كان يحـدث في قعره انقباضات وتقدمات في ارجح الظن . فاجتمعت المواد الراسبة من القارتين الشمالية والجنوبية ونشأ من تجمعها في العصر الثالث باوربة سلسلة جبال الالب . ولكن الى اين امتدت هـذه السلسلة في الاتلنتيك ، وكم من الزمان بقيت قائمة فوق المياه ، ومتى غارت في قعر الدأمـاء بعض اقسامها ، وهل امتـدت غضون الالب والاطلس الى بحر الانتيل ، وهل يجوز التسليم بصلة كانت قديماً بين الالب والكورديلير ؟ فهذه الاسئلة لا جواب لها في الوقت الحاضر .

على ان المسيو لويس جنتيل (Gentil) قد تتبع في الاطلس الغربي الغضون الثلاثية الى ساحل المحيط الاتلنتيكي ، وتأكد انخفاضها شيئاً فشيئاً حتى

تتصل بالبحر وتغور فيه . وكذلك الحال في شأن الغضون الحاصلة في ساحل اغادير وراس غير (Ghir) فاذا تتبعها المرء بفكره ، وجدهـا ايضاً تتصل بالجزائر الخالدات . ولكن لا بد ، قبل القول بان الجزائر الخالدات هي بقايا من الاطلس الذي ابتلعه البحر ، من النظر في الغضون الحاصلة في اراضي اواخر العصر الثاني . فالاطلس كما هو معلوم فرع من سلسلة العصر الثالث ، وما هو الّا ممدّ الاپنين في شمال افريقية . امـا الالب الذي هو فرع هذه السلسلة الرئيسي فيسهل على المرء تتبعها الى سيرّانافدا ومضيق جبل طارق ؛ ومن تحت هذا المضيق تتصل بالريف . وجملة القول ان اسباباً قويّة تحملنـا على الظن ان ممدّ الغضون الثلاثية الاتلنتيكية ، وغضون الاطلس ، الى نحو الجزائر الخالدات ، وغضون الالب الى نحو جزائر اسور الجنوبية فقط ، ولكن لا يجوز مدّها اكثر من ذلك ؛ لان اراضي سنتا ماريّا احدى جزائر اسور الاميل الى الجنوب تدل على انه في اواسط العصر الثالث كان يمتـد شاطئ البحر المتوسط الى قرب اسور من جهة ، ومن جهة اخرى في العصر عينه الى قرب الجزائر الخالـدت . فعلى كل حال قد حدث تغيّرات بالاتلنتيك في الازمان الاخيرة ؛ والدليل على ذلك كثرة البراكين والحمم العريقة في القدم . وقـد وسعت السيخانات في الاعصر الثانية حـدود البحر المتوسط ، وجرفت السلسلة الهرزولدية ، ونشأت غضون في النصف الاول من العصر الثالث كان من نتائجها تغيير قعر هذا البحر ، وقيام جزائر جبلية على مقربة من ساحله الشماليّ . ثم في اواسط العصر الثالث حدثت سيخانات اخرى في البر والبحر فدرست آثار تينك القارتين وشواطئهما وظهر نتوء جديد يمتد من الشمال الى الجنوب عقبه تدفق سيول الحمم . هذا موجز تاريخ المحيط الاتلنتيكي منذ بضعة ملايين من السنين . ويظن لودس جنتيل ان مضيق جبل طارق انفتح في ابتداء العصر الثالث ، وفي اواسطه كان البحر يغمر شاطئ اغادير ، وكانت مادرة والخالـدات في ذلك العصر منفصلة عن القارة ؛ وفي الاعصر الرابعة انخفض الزقاق الفاصل مـادرة والخالدات عن الارض الافريقية .

فينتج من ذلك كله ان قعر الاتلنتيك اصابه تغيرات على اثر انخفاض قعر

البحر المتوسط في المنطقة البركانية المتسعة البالغ عرضها ثلاثة آلاف متر والممتدة من الجنوب الى الشمال في النصف الشرقي من المحيط الحالي . وهذا كله يدل على سيخانات اودت بجزائر بل بقارات ؛ وعلى حدوثها فجأة وبسرعة في العصر الرابع بعد خلقة الانسان. فاذن علم طبقات الارض لا يرى في نكبة الاتلنتيد شيئاً مستحيلاً.

رأي علماء الحيوان

بقي علينا استطلاع رأي علماء الحيوان في هذه المشكلة. فاليك ايها القارئ محصل ما توصل اليه المسيو لويس جرمان في حل هذه المسألة . فان هذا العلامة بعد ان تفرغ لدرس الحيوان العائش في جزائر أسور ومادرة والخالدات والرأس الاخضر ، ثبت عنده ان اصل هذا الحيوان كله واحد ، وذهب الى مرجعه الى قارة واحدة في الاصل . ولما قابل بين انواعه العائشة في هذه الجزائر والانواع عينها العائشة في البر ، تحقق :

اولاً : ان الحيوان الخالي من الفقار العائش في البر حول البحر المتوسط يتصل الى الحيوان العائش في هذه الجزائر ، ولكنه مع شدة شبهه له يختلف عن الحيوان العائش في خط الاستواء الافريقي ؛ ووجد بعض الشبه بين الحيوان الرباعي الخالي من الفقار وبين انواعه العائشة حول البحر المتوسط.

ثانياً : ان تكون اراضي الجزائر الخالدات في العصر الرباعي شبيه باراضي موريتانية ، وانها تشمل انواع الحيوان الخالي من الفقار عينها . فاستنتج ان هذه الجزر كانت متصلة بالقارة الافريقية في اواخر العصر الثالث ، على الكثير

ثالثاً : ان الحيوان الخالي من الفقار الموجود الآن في هذه الجزائر عين الانواع المتحجرة في اراضي العصر الثالث الاوربي ؛ وكذلك امر النبات لان الخنشار المسمى (*Adiantum reniforme*) الذي لم يبق له اثر اليوم في اوربة وكان معروفاً في العصر الثالث البرتوغالي ، ما زال حياً في أسور والخالدات . فاستدل بذلك على اتصال شبه الجزيرة الايبرية بقارة هذه الجزائر حتى العصر الثالث ، وعلى انفصالها عنها في العصر عينه.

رابعاً : ان الحيوان الحالي من الفقار المسمى (*Oleacinidae*) لا يعيش الّا في اميركة الوسطى والانتيل وحول البحر المتوسط والخالدات ومادرة وأسور ، وقد بقي في اميركة بقدّه وحجمه الذي كان عليه في اوربـة باواسط العصر الثالث . امّا في ما يلي البحر المتوسط وجزائر الاتلنتيك فقد صغرت جثتـه ودقّت . ومن هذا يستدلّ على انه في ابتداء اواسط العصر الثالث ، كانت القارّة الشاملة اسور والخالدات ومادرة تمتـد الى الانتيل ، وعلى ان الانفصال حدث في ذلك الزمان او بعده بحين .

وقد استنتج المسيو جرمان من كل ما مرّ وجود قارّة او ارض اتلنتيكية كانت متصلة بشبه الجزيرة الايبرية وموريتانية وممتـدة الى الجنوب ، وواصلة الى الانتيل ، وقد ساخت شيئاً فشيئاً ولم يبقَ منها الّا الاتلنتيد التي ساخت ايضاً ، وتركت لنـا الجزائر الباقيـة الى يومنا . على ان هذه النتائج التي استنتجها هذا العلّامة من دروسه توافق نتائج علم طبقات الارض .

فبعد هـذه البراهين لا يسعنا الّا التسليم بوجود اراض منكشفة كانت قائمة الى غربي اعمدة هركول ، من جملتها جزيرة جميلة يفصل بينها وبين ساحل افريقية عدّة جزر صغيرة . ولكن هل كانت هذه الجزيرة مأهولة ؟ هذه هي المسئلة العويصة التي لم يتوفق بعد علم طبقات الارض الى اماطة حجابها ، ولا درس الحيوان الى ابداء سرّها ؛ فتاريخ الانسان والشعوب ودرس البحار احق بالجواب عنها .

النتيجة : ان كل انسان حر ان يعتقد صحة رواية افلاطون الفيلسوف لان العلم لا ينقضها ، بل على الضد يثبتها .

خزائن الكتب العربية وخرابها

بقلم الاب لامنس اليسوعي

ما اوهى حياة الكتب ! فانها وديعة الورق ؛ وما اقرب مادة الورق من التلف ! ان المحافظة على الكتب تقتضي مراقبة لا تعرف الملل لتحميها من العثة والنار . ومن ذلك نفهم حكمة البابليين واليونان والرومان في نقشهم على الآجر ، او الحجر ، او النحاس ، الكتابات التي كانوا يقصدون حفظها على مدى الدهر .

ذكرنا اعداء الكتب ولم نذكر الدّهم اعني الانسان . هذا ما يشهد عليه التاريخ ، ويا لـه من تاريخ مفجع ليس فقط في العصور الخوالي ، ولكن في عصرنا ايضاً عصر النور . حسبنا الاشارة الى احراق مكتبة لوڤان في شهر آب ١٩١٤ اذ اتلف فيها اكثر من ٢٠٠,٠٠٠ كتاب مطبوع او مخطوط . وقد حدث ذلك الحريق لا قضاء وقدرًا كما قد يحدث في الحروب ، ولكن تعمدًا . وقد حكمت معاهدة ڤرسايل على من وقعت عليهم تبعة هذه الجريمة بالتعويض عنها ، ان يكن من ثم سبيل الى التعويض عن امثال هذه الاضرار !

نشرنا في المشرق (٢٠ [١٩٢٢] ١٠٧) مقالًا على اتلاف مكتبة طرابلس عندما فتحها الصليبيون ؛ واظهرنا ، في حقيقته التاريخية ، ذلك الحادث ، وكانوا قد ضخَّموه ومسخوا وجهه حتى اضحكونا . وما هو الّا قصة بضعة آلاف المجلدات كان آل بني عامر الشيعيّون قد جمعوها ليذيعوا بها مذهب البدعة الامامية . فاذا بذلك العدد قد بلغ الثلاثة ملايين يا للجهل ! . ايدري الذين اذاعوا تلك الحكاية ان ثلاثة ملايين من الكتب عزيزٌ وجودها حتى في مكاتب العواصم

العربية المؤسسة منذ الاجيال . بيد ان مجموعة طرابلس الشيعية لم تكد تبلغ الخمسين سنة من عمرها !

ان قراءتنا وقفنا على المناقشات اللاذعة التي دار محورها على مشكل تاريخي آخر وهو نسبة احراق مكتبة الاسكندرية الى الخليفة عمر بن الخطاب . في نظرنا ان البرهان القاطع على ذلك الاتلاف لم يثبت بعد. على ان الخبر ، وان كان اسطورة من الاساطير ، فلا بد من تفسير السبب الذي دعا عبد اللطيف، وابن القفطي ، والمقريزي ، وغيرهم من قدماء المؤرخين الاسلام الى اشاعته . لعلهم ظنوا نسبة احراق مكتبة الاسكندرية الى عمر مرقاةً لكرامته ، ولا وسيلة ابلغ منها الى غرضهم وهو الاشادة بغيرة عمر على الاسلام . ولعلّ ابن خلدون رأى رأيهم فنحا منحاهم ؟ جاء في المقدمة[1] « فاين علوم الفرس الذي [كذا] امر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح » وكأن ابن خلدون قد دهش من قلة الكتب الفارسية القديمة فلم يتردّد بنسبة فقدانها الى الخليفة عمر . لا نعرف اين استقى المؤرخ الشهير مصادره ولا نعرف هل اخذ عنه هذا الخبر غيره من المؤلفين . على ان تاريخ البلاد الاسلامية طافح بحوادث النكبات التي ذهبت فيها مكاتب برمتها ضحية اغراض البشر الردية .

* * *

من اشهر تلك النكبات ما حل في بغداد ، الشهيرة ليس فقط بمكاتبها ولكن بمخاصماتها الدينية ايضاً ، اذ احتكّ في ميدانها منذ القرن الحادي عشر السنيّون بالشيعيّين اولاً ، ومن بعدهم الحنبليون بسائر المذاهب . وربما عمدوا الى السلاح لفضّ المشاكل ولم يكن من النادر ان يهاجم احد الفريقين كتب الفريق الآخر .

وقد حفظ كتاب الف ليلة وليلة صدى تلك الحوادث اذ روى ان ابواب بغداد كانت مغلقةً لئلا تمنع اصحاب البدع من اتلاف الكتب وطرحها في دجلة ، مما يدل على ان الحادث لم يكن من الامور التي لم يُسمع بها قط !

١) طبعة باريس ١ : ٧٨

وفي سنة ١٠٥٩ عاث عسكر السلطان السلجوقي طغرول بك[١] فسادًا في عدة مكاتب بغدادية واحرقوها . واتلف التتر غيرها من المكاتب على ايام هولاغو ، وابادوها فلم يبقَ لها اثر .

وان ما يُروى عن مكتبة غزنة[٢] (افغانستان) يؤيد كلامنا بمثل آخر . فانها أُحرقت على يد جنود الامير حسين سنة ١١٥٥ عند تدميرهم المدينة .

وستين قبل ذلك العهد حول الاتراك[٣] الى رماد مكتبة نيسابور . وسواء أكان الفاترون في النضال سنيين ام شيعيين فانهم قلما قمعوا النفس الأمارة بالسوء . ومنعوها عن احراق كتب خصومهم . وجرت احكام هذه السنة القاسية بمكتبة حلب على ايام ابي العلاء المعري ، يوم عاشوراء . وعلى هذا المنوال دمّرت مكتبة الري في بلاد فارس .

وقبل ذلك العهد بستين امر السلطان محمود الغزنوي باحراق « كل ما كان في علم الكلام »[٤] . فضلًا عن الكتب التي اعلنت الريبة في صحة تعليمها . اعني بها كتب « الروافض واهل البدع » .

وكان للاتراك والتتر النصيب الاوفر في تلك الفظائع . فهيا بنا نرى الآن هل كان المسلمون في سائر البلاد ارحب صدرًا واكثر اكرامًا للمنتوجات العقلية ؟

* * *

لقد كتبوا ما كتبوا في هذه الآونة الاخيرة تعظيمًا لما بلغته الاندلس من علوّ منزلة العمران . حتى ان البشرية لم ترتقِ في زعمهم الى مثل ذلك النجاح الفكري والمادي . يا لها من بيئة سعيدة لا خطر فيها على الكتب من فساد المفسدين . ولكن لا بد من القول ان الواقع كان خلاف الاوهام . ليس بلد من البلاد حفظت له تواريخ العرب من احراق المكاتب ما حفظته للاندلس . وها ان الاستاذ

---

١) ابن الاثير ، التاريخ الكامل ، ٩ ، ٢٤٦ ؛ ١٠ ، ٥

٢) ابن الاثير ، التاريخ الكامل ، ٩ ، ٢٦٧

٣) ابن الاثير ١١ ، ١٢٠

٤) ياقوت : ارشاد الاريب ، ٢ ، ٣١٥

ديبيرا[١] خصّ مكاتب الاندلس الاسلامية واصحابها بدرس مسهب وبيّن ما كان للكتب من المحل في شغف الناس وولعهم ثم قال : « في الاندلس ، سحابة قرون عدة ، كان الوقوف على حريق المخطوطات العربية من الذّما تتمتّع به العامة في اعيادها وافراحها[٢]. »

ولما رسخت قدم المذهب المالكي في الاندلس وطُرد المذهب الاوزاعي ، الذي كان قد دخل البلاد مع العرب السوريين ، استشم العلماء المالكيون رائحة البدع في كل مكان ؛ فحركوا الشعب فصار يناوئ كل مجدد حقيقي او مزعوم ويحرق كتبه . ومن الذين ذهبوا ضحية تلك الحركة ابن مسرة الفيلسوف وبعده ابن كليب[٣] المتّهم بتعليم « القدر » ، احرقت كتبه بعد موته في ساحة البلد . وكانت الحكومة تبيح تلك الفظائع ولا تجرؤ على مقاومتها . احبّ الوزير المنصور المؤلفات الفلسفية وحرص كل الحرص على اخفائها . وكان للسلطان في عزه مكتبة بلغ عدد مجلداتها على ما يقال ٤٠٠,٠٠٠ فلم ينجها من شر هذه الاعمال البربرية . لان المفتشين دخلوها ، واحرقوا منها عدداً وافراً في محضر من الوزير المنصور ، وقد اضطرّوه الى مساعدتهم على اتلافها . ولم يبقوا الّا على ما لم يجدوا فيه شبهةً من كتب الطب والحساب والشريعة وغيرها .

ولما استولت دولة المرابطين على الاندلس ، كثرت حركة التدمير ، فاحرقت مؤلفات الفلاسفة وفيها كتب الغزالي الذائع الصيت . وكذلك جرى في مكاتب عديدة[٤] . ثم غلب الموحدون المرابطين فاخذوا باحراق كتبهم ، ودارت الدائرة على كتب المذهب المالكي : حملوها احمالًا على الرواحل ، ووجهوها الى فاس في مراكش واحرقوها في مجتمعات الناس .

في السنة ١٥٤٢ حلّ فاس رجل بلجكي اسمه نقولا كلينار ، وكان يحسن العربية وهو مشغف بها ، ومما لفت نظره في المدينة عدم وجود المكاتب وندورة المخطوطات ، وعددها اقل من القليل ، فان المؤلف الشامل بضع

١) *Disertaciones y opusculos, I. 181. etc.* ٢) *I, 220.*

٣) راجع الفرضي : تاريخ علماء الاندلس (*éd. Codera. I, p. 120, n° 417*)

٤) ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة (*éd. Codera*) *II* ، ٥٦٧ ، ٣

مجلدات كان وجوده بكماله مستحيلاً.

وكانت دولة الموحدين قد رضيت على ابن رشد ، فانقلب الشعب الاندلسي عليه وعلى مؤلفاته . وهذا الانقلاب يدلنا على سبب قلّة ما حفظ من مخطوطات ابن رشد. واتلفوا ما اتلفوا من الكتب حتى نفدت خزائنها. ولذلك لما اراد سلاطين بني مرين تأسيس مكتبة في فاس قصدوا الى الملك سانشو[1] الرابع، فارسل اليهم الامير المسيحي من بلاده ثلاثة احمال من المخطوطات العربية.

ذكرنا المؤرخ ابن الآبار وفاتنا القول ان كتبه قد أُحرقت في ساحة تونس الغرب . فهل من سبيل بعد الى السؤال عن مؤلفات مسلمي الاندلس ؟ او ليس الاحرى بنا ان ندهش لبقاء جزء منها بعد تدمير المدمرين !

فاذًا ، شاء البعض او أبوا ، لا بدّ من الاقرار ان البيئة الاندلسية لم تكن ارحب صدرًا من غيرها بالمنتوجات العقلية . وممّا يأسف له العلم كثيرًا ان الكتب كانت تذهب ضحية تلك الايام . وسواء أكان المالكيون غالبين او مغلوبين ، فعلى الكتب كانت تحلّ نقمة الناقمين.

وفيما نحن في هذا الصدد ، لا بد من ذكر القاهرة حيث انشأ الخلفاء الفاطميون مكتبة نفيسة . لقد نالها ضرر عظيم في الثورات العسكرية التي اضطرمت نيرانها في اواخر الدولة الفاطمية . فأُتلف جزء من الكتب ، وجزء آخر ظلّ محفوظًا الى ان ملك مصر صلاح الدين . فقُيِّض للسلطان الكردي الاجهاز على تلك المكتبة الشهيرة : اعطى قسماً منها كاتبه القاضي الفاضل ، وامر بعرض الباقي في السوق بالمزاد . وطال بيعها سنين...

فتأمل واعظم بالكارثة !. واعلم ان صلاح الدين عامل مكاتب سورية المعاملة ذاتها . حتى قال بعضهم ان عبد اللطيف المعجب بصلاح الدين كثيرًا اختلق خبر احراق المكتبة على يد عمر ، عذرًا لسلطانه ، وذهب مذهبهم المرحوم كازانوفا[2] . ولكن ، صح الخبر او كذب ، فليس فيه ما يعود بالفخر على صلاح الدين ولا على عبد اللطيف.

١) راجع روض القرطاس (*éd. Tornberg*) ص ١٨.

٢) *Académ. Inscriptions et belles-lettres, 1923, p. 163-71*

الحياة النسكية في لبنان

محاضرة القاها

في نادي الشبيبة الكاثوليكية

الخوري بطرس غالب

٣

لننتقلنَّ الآن الى عصرنا ، ونتفرَّس في وجه الحبيس الذي يخيَّل الينا انه من بقايا القرن السادس عشر ، وكأنما هو قِرنٌ لملكا البقوفاوي الذي بلغ من الزهد والتقشف مبلغاً نكاد لا نصدّقه لغرابته .

هذا الحبيس العصري هو شربل مخلوف المتوفى برائحة القداسة في ٢٤ كانون الاول سنة ١٨٩٨ ، بعد ان سار سيرة عجيبة . وكأني به قد جُعل في قربنا ليشهد لنا بان اسلافه من الحبساء قد سلكوا حقًّا هذه الطريق الكاملة ومارسوا كل ما فيها من ضروب الزهادة والنسك .

وقد رأى الاب دهبونفيل ، رئيس كلية القديس يوسف ، جسد هذا الحبيس في دير القديس مارون بعنايا في اعالي جبيل . ذلك الجسد لم يفسد وهو شبيه بالموميا ، لكنه منذ ثلاثين سنة اي من سنة وفاته الى اليوم ، يبعث رائحة قوية غير متعفنة لا تلبث ان تصير لذيذة . وعند قبره وبشفاعته يصنع الله كرامات غير اعتيادية .

وُلد شربل في بقاع كفره وهي في لبنان الشمالي ، بالقرب من الديمان على ارتفاع ١٤٥٠ مترًا من البحر ، فهي اعلى قرية في لبنان . وسُمي يوسف .

وكان ابوه يرسله لحراسة البقر والمعزى في المرعى . فيتوسّل يوسف الى احد رفاقه ان يسهر على قطيعه الصغير . اما هو فكان ينفرد بعد رمية حجر ويجثو على الارض مصلياً . وكان بالقرب من المرعى مغارة فاختارها ليمارس

فيها رياضاته الروحية . امّا رفاقه فكانوا يهزأون به لاجل تطرفـه في العبادة ويعدّونه ابله لانه كان يأبى ان يلعب معهم . وهذه حال الناس في كل عصر . هي الحكمة البشرية اوحت الى هؤلاء الرعـاة ان يحكموا حكماً فصلاً في طرق الرب .

ذلك الكهف الصغير دعي اولاً مغارة الابله ثم ما لبث ان صار معروفاً بمغارة القديس . امّا يوسف فلم يبالِ بما يقال عنـه بل ظل سالكاً في سبيل عبادته . فلمّا بلغ سن الثامنة عشرة سمع صوت الرب يدعوه الى سيرة الكمال والتضحية . وكان على تمام التأهب فلبى الدعوة غير متردّد ، ولم يثبط عزمـه ممانعة ابويه ولا توسلات اصدقائه . ذلك الابله اعرب عن سخاء نفس عظيم ، وكان انه وضع يده على المحراث فلم يلتفت الى الوراء . هجر اهله ولم يشأ ان يراهم فيما بعد .

ثم لمّا انتشر طيب فضائله وبعدت شهرة قداسته ، اتت اخته من بقـاع كفره الى دير مار مارون عنايا لتراه مجتازة مسافة ١٢ ساعة في الاقل ، فابى ان يواجهها حتى امره رفيقه الحبيس مكاريوس بان يقابلها ويعزّيهـا بيسير من الكلام . فعند ذلك وقف شربل في آخر ممشى المحبسة واسمعها بعض كلمات من وراء ستار كثيف .

وفي مدة ابتدائه كان مثالاً في التقوى لكل من يراه ، واستبدل اسم يوسف باسم شربل حتى لا يبقى على شيء من تذكارات العالم الذي مات عنـه موتاً كاملاً . وجعل يبالغ في رعاية القانون الرهباني يحفظه بكل دقة . وقيّض له الله معلّماً يدرسه اللاهوت الادبي ، راهباً قديساً يعرف اليوم باسم « قديس كفيفان » وهو نعمة الله الجرديني رجل الله الشهير . وقد صار التحقيق الاولي القانوني عن سيرة هذين الراهبين عبدي الله ورفعت اوراق تطويبهما الى رومية . فكان ان مثل ذلك المعلّم القديس أكمل تهذيب شربل الروحي وتثقيفه فأجمع الرأي على انه اهل للكهنوت .

سيم كاهناً فاراه تواضعه انه غير اهل لتلك النعمة المفاضة عليه ولا للقيام بمهام الكهنوت الكثيرة ، فسأل رؤساءه ان يرخصوا له بالانقطاع الى الصلاة

والتقشف في احدى المحابس ليعاون بممارستهما الكهنة المنصرفين الى خدمة النفوس. ومكث زماناً طويلاً لا يُؤذن له بما يشتهيه من الانفراد. كأن الله سبحانه شاء ان يمتحن طاعته ريثما يستكمل الفضائل التي تقتضيها الحياة الرهبانية العمومية. فلماً رأى تمام نضجه اعلن رضاه عن مطلبه وعضده بعلامة عجيبة.

كان شربل مع اخوته وبعض العملة في حقل للدير يعزقونه فأمر ان يجمع الحصى وينضدها على الحيطان، ويركش الارض، ويساعد الحصّادين بربط الحزم، ويقتلع الشوك، وينقل التراب في سلّ، ويحمل ماء الشرب الى العملة. فكان يتم دون تمرمر جميع ما يسومه عمله الاخ المولّى ادارة اشغال الحقل (رئيس الحقلة). وحين يجلس العملة لاخذ الراحة كان شربل يبتعد عنهم قليلاً ويأخذ في الصلاة. امّا الاخوة والعملة فكانوا احياناً يفتحون له سبيلاً واسعاً الى ممارسة الصبر. من ذلك انه حدث انهم ذات يوم حمّلوه كل ادوات العمل من معاول ومجارف ورفوش ومناجل وجرار ليحملها الى الدير. فلماً صارت على ظهره قال لهم مبتسماً: شغلتم ظهري ولم تشغلوا يديّ فهاهما لا تزالان فارغتين، افلا ترون ان هذا الحمار (عنى جسده) يستطيع ان يحمل اكثر من ذلك!

وفي ذلك اليوم وصل الى الدير متأخراً، لان جسده الذي اضناه التقشف والشغل والسهر لم يأذن له بالاسراع كاخوته. فلم يبلغ الى الدير الا في ساعة العشاء. وكان الرهبان يتناولون طعام العشاء بعد صلاة المساء. اي زهاء الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر.

ولم يكن بعد قد وفى فرض الصلاة فاقبل على الاخ الكلارجي يطلب زيتاً لسراجه، فلقيه الكلارجي بدمدمة وتذمّر وحول له ظهره.

غير ان الخادم اراد ان يمازحه فاخذ منه السراج وملأه ماء، وشربل لا يراه، وقال: خذ سراجك يا ابانا شربل فقد صببت فيه زيتاً...

صدّقه شربل، وذهب بسراجه الى قلّايته ليصلي فرضه. أشعل السراج فاشتعل. الا ان الخادم أخذ بحيلته. وذلك ان رئيس الدير بينا كان يطوف الماشي على عادته متفقداً القلالي بعد اطفاء المصابيح وكان الخادم وراءه ابصر نوراً في قلاية شربل. فبكّت الخادم ضميره وخاف ان يلوم الرئيس شربل

فاوقف الرئيس على ما فعل . ومع ذلك دخل الرئيس غرفة شربل واخذ السراج وصبّ ما فيه على الارض ليعلم ما اذا كان فيه ماء؟ واذا كانت رواية الخادم صادقة ، فاذا هي كذلك. وفي الغد استدعى الرئيس شربل وقال له : ان الربّ يشاء ان تكون حبيساً . فلا املك مقاومة مشيئته بعد ما أعلنت على هذا الوجه الصريح . فوقعت هذه البشرى من قلب شربل وقع الماء الزلال على صدر ظمآن . فتوجه لساعته الى المحبسة وسجد امام الرب ، الذي هو ايضاً حبيس في معبد المحبسة ، وادّى الشكر من صميم الفؤاد . لانه فاز بما كان يشتهيه ، اي العيش بالقرب من السجين الالهي وحرية تقريب نفسه ذبيحة يومية طول ايام حياته لذلك الذي جعل نفسه ضحية لافتدائنا .

للحبساء قانون يجب عليهم ان يتقيدوا به . سنهُ لهم التقي الورع عبدالله قراألي مطران بيروت ، احد مؤسسي الرهبانية اللبنانية المنسوبة الى القديس انطونيوس الكبير. واهم مواد ذلك القانون ان الحبيس منذ يؤذن له بدخول المحبسة يجب عليه الطاعة لرئيس الدير المختصة به المحبسة ، يكون له رفيقٌ او رفيقان يقومان معه بالخدم الضرورية . ولا يحقّ للحبيس ان يلبس سوى الثوب الرهباني وهو من صوف غليظ تحته ثياب من خام خشن جداً قاتم اللون.

ساعات نهاره مقسمة على الصلاة والدرس والعمل اليدوي ، والصمت فريضة عليه لا تنقض الا في احوال الضرورة ولداعي المحبة والرحمة . ولا يجوز له الاكل الا مرة في كل اربع وعشرين ساعة ، وهذه الاكلة الواحدة تؤخذ من فضلات مائدة الدير مخلوطة بعضها ببعض ومزيداً عليها قليلٌ من الخل والملح . واحياناً يقتصر الحبساء على (سلطة) مصنوعة من حبوب مسلوقة ومن ورق وسوق النبات. وكان لشربل رغبة خاصة في السلطة المصنوعة من الفرفحين بدون زيت .

ومن قوانينهم ان لا يقبلوا الزائرين الا خارج القلاية وليس لهم ان يحدثوا النساء الا عند الحاجة من وراء شعرية عليها ستار كثيف . وبعد تحية الزائر بما يقتضيه ادب الزيارة يجب ان يدور حديثهم على ما يفيد السامع روحياً .

(للبحث صلة)

دير البلمند

بقلم الاب توتل اليسوعي

في جنوب طرابلس الشرقي ، بين قريتي أنفة وقلمون ، وعلى مشارف صخور تعلو سطح البحر بنحو منتي متر ، موقع البلمند .

هذا الدير الجليل بآثاره هو خاصة الروم الارثوذكس ، لا يخالفهم عليه مخالف ؛ وان نذره اليومَ بالفكر ونتخذه موضوعاً لمقالنا ، فلا غاية لنا من ذلك الّا تعريف القرّاء باحد معاهدنا التاريخية . ومما يشوقنا الى الكلام عليه ان اساقفة الروم لفتوا النظر اليه في هذا العام ، لمّا اجتمعوا بين جدرانه للتداول في شؤون ملّتهم وتمهيد السبيل الى انتخاب خلف للمثلّث الرحمات البطريرك غريغوريوس . واستهوانا في البحث على آثاره مؤلفٌ حديث نشره مسيو انلار احد العلماء الافرنسيين وعنوانه[1] : « بنايات الصليبيين الدينية والمدنية في الشرق » . خصّ فيه البلمند بفصل مطوّل عرض فيه ، مع تاريخ الدير ، عدداً غير قليل من صوره ورسومه . فلا اقلّ من التنويه به في هذه العجالة والاقتباس منه ما يفيدنا الوقوف عليه من تاريخ الدير . ولا اخالني متطفلاً اذا اشرت به على الروّاد والمصطافين ، طلّاب آثارنا المجيدة لانّ الضيف فيه مكرّم ولنا فيما كتبه انلار في مؤلفه المذكور (ص ٤٧) شاهد على ذلك . قال : « ان ضيافة الدير لا يضاهي كرمها الا روحها المسيحية اني قضيت اسبوعين في البلمند فحفظت لرهبانه الافاضل ، وللسيد الكسندرس رئيسه الوقور ، عواطف شكر لا مزيد عليها لمستزيد . »

---

1) Enlart : *Les Monuments des Croisés* ; 4 *Vol. Geulbner, Paris,* 1925-1928

يتناول اولاً مقالنا تاريخ البلمند في القرون الوسطى فيبحث في اصله ونسبه وآثاره ، مخطوطةً ومنقوشةً . وثانياً تاريخه الحديث منذ دخله الارثوذكس الملكيون فاصبح « من اعظم واشرف اديرتهم في بر الشام »[1]

اصل البلمند

في كتاب « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » (المجلَّد الاول ص ١٥٤ -- ١٥٦) ، خصَّ حضرة الاب لامنس دير البلمند بدرس وجيز ، فقال ان هذا الدير يرقى الى الصليبيين ، وانه لولاهم لما رأى عالم الوجود . واثبت قوله بالادلَّة التاريخية المأخوذة من اسم البلمند ، وآثاره المخطوطة والمنقوشة ، وانتهى الى هذه النتيجة: ان دير البلمند أُنشئ في ٣٠ ايار من سنة ١١٥٧ ، وان رهبان القديس برنردس المعروفين بالسترسيين تولوا بناءه وجعلوه تحت حماية البتول الطاهرة سيدة بلمنت (Abbatia Belimontis) . وكان ذلك الكلام ردًّا على مقال ظهر في المنار ، في ٢٩ ك ١ سنة ١٩٠١ ، نسب فيه صاحبه خراب البلمند الى الصليبيين . على ان بعضهم لم يرضَ عن هذا الرأي . فنشرت مجلة الكلمة (١٩٠٧ ص ٢٩٥ الخ) « للاهوتي البارع الياس افندي اسطفان الحلبي » لمحة تاريخية عن دير البلمند اعاد فيه قول المنار بنسبة خراب البلمند الى الصليبيين وحاول تأييد حجته بالبراهين فقال :

« ان الصليبيين منذ تسلطوا على طرابلس الشام وجعلوها كونتية ، كما قالوا في ذلك العصر ، كانت الحرب بينهم وبين الاسلام قائمة على قدم وساق وايْن منهم ان يشيدوا اديرة لاجل الرهبان الذين كانوا يقاتلون في سبيل تأييد سطوتهم والمحافظة على المدينة وخصوصاً فقد اشتدَّ عليهم القلق من سنة ١١١٢ الى سنة ١١٨٧ ولم تكن الحرب وحدها التي اقلقتهم فقد حدثت سنة ١١٥٧ المزعوم فيها بناء الدير المذكور زلازل شديدة خربت القسم الاعظم من طرابلس وجوارها . . .

« فكيف نقبل انه في تلك السنة ، سنة حروب طبيعية وبشرية ، خرج فيها الفرسان ليبتنوا الحجارة التي لم يكونوا في مأمن من شرّها ، وكانوا في مأزق من الحسرات لخروج العرب الاسلام عليهم ، وعمّا جاءهم ضغثاً على إبالة التحاسد

١) راجع مجلة الكلمة سنة ١٩٠٧

والتضاغن الذي وقع في ما بينهم»

وخلاصة كلامه ان الزلزال والحرب والفتن حالت دون بناية الصليبين لدير البلمند . وان سألته عن تاريخه الاصيل قال :

«ان مائدة الكنيسة مرفوع فوقها قبة من الخشب مدهون داخلها وعليها آيات من المزامير وتاريخ ١١١٣»

وكاني به قد رأى ذلك العهد قريباً من عهد الفتوحات الصليبية (لان بيروت فتحت سنة ١١١٠)فلم يقف عنده وحذف من ١١١٣ رقماً ، وقال:«انه عثر في زوايا الدير على صحن من نحاس قد اكل عليه الدهر وشرب وعلى دائرته كتابة كتبها الاتقياء الذين اوقفوه على دير البلمند مؤرخة لسنة ١١٣ فان حسبنا هذه السنة هجرية يكون زمن وقفيته سنة ٧٣٥ ...»

وانا لنشكر للكاتب رزانته فلم ينسب الصحن المذكور الى ١١٣ ميلادية. ولكن في روايته من المستغربات ما يضطرنا الى نبذها · باي لغة كتب «الاتقياء» في السنة ٧٣٥م و ١١٣ ه؟ أبالعربية ؟ ولغة القوم في لبنان كانت السريانية ! فمن اين للعامة ان تنقش نذوراتها باللغة العربية الاسلامية ؟ — وان كانت الكتابة المذكورة منقوشة بالسريانية او باليونانية فليس من المعقول ان يؤرخها اصحابها بالتاريخ الهجري على صحن يقدمونه هديةً الى دير مسيحي. — اما المائدة المذكورة المؤرخة من سنة ١١١٣ فلم يذكرها الاب لامنس ، ولا العلّامة انلار في مؤلفه المنوّه به سابقاً . فاذاً ليس من الحكمة بان نسند الى التاريخين ١١٣ او ١١١٣ رأياً علمياً . مع كون الثاني يحكم باصل البلمند الصليبي. اما قول الكلمة بعدم امكان الصليبين بناية البلمند من جراء زلزال ١١٥٧ فليس فيه برهان البتة . واليك ما جاء في كتاب تاريخ الزلازل[1] :

سنة ١١٥٥ — حدث زلزال في انطاكية ودمشق وطرابلس قتل فيه اكثر من ٢٠٠٠ نفس.

سنة ١١٥٦ — حدث في سورية زلزال هائل لم تشاهد بلادنا مثله خربت فيه

---

1) *Mémoire sur les Teremblements de terre ressentis dans la Péninsule Turco-Hellénique et en Syrie, par* A. Perrey, *Bruxelles*, 1850.

دمشق وحلب وحماة وحمص وانطاكية وطرابلس ومات اكثر من٢٠٠٠٠ نفس.

على ان المؤرخين لم يتفقوا على تاريخ تلك النكبة الكبرى فمنهم من وضعها في سنة ١١٥٧، ومنهم في سنة ١١٥٨، ومنهم في سنة ١١٦٠.وليس الّا واحد روى تاريخ ١١٥٧.وهب ان الزلزال حدث سنة ١١٥٧ فلم يكن ليمنع وضع الحجرة الاساسية في البلمند لانهم لم ينجزوا عملهم فيه الّا ١٢ سنة بعد ذلك اي في السنة ١١٦٩ التي فتح فيها الصليبيون مدينة بانياس[1]

وفضلاً عن ذلك اننا لو قبلنا حجة الزلازل والفتن والحروب، لنفينا بناء الصليبيين لاي معهد كان في مملكة اورشليم، وقلنا بان عهدهم كان اشبه بعهد تيمورلنك والتتر. ولكن الواقع جاء خلاف الوهم:

وصف انلار حالة الصليبيين في القرن الثاني عشر فلم يوار المصاعب والمشقات التي حلّت بهم: من عدم توحيد الادارة بينهم، وفقر الاراضي التي استولوا عليها، وقلة عدد رجالهم بالنسبة لعدد الوطنيين، وكثرة المخاطر والمخاوف التي كانت تتهددهم من فارس ومصر والشام، وعدم وجود بحرية منظمة تخدمهم وتربط بينهم وبين بلادهم.ومع ذلك فلم يتمالك عن القول ان مملكة اورشليم بلغت درجة من النجاح جديرة بالذكر، من العام ١١٣١ الى العام ١١٧٤ اذ غنم لها الملك اموري من حملاته على مصر غنائم كثيرة. فلا عجب ان يتمكن الصليبيون من بناء الكنائس والاديرة ومنها البلمند. فضلاً عن ان ايامهم لم تكن كلها حروباً وفتناً بل كان يتخللها سنو سلم وأمن ينصرف فيها الناس الى اشغالهم[2]. فيستبدل العسكر سلاحه بآلات البناء والصناعة، ويعكف على الاعمال الفنية والعمرانية. والشاهد في ذلك ما رواه مؤلفو العرب فضلاً عن الافرنج.لان المسلمين لما استردّوا اورشليم دهشوا ممّا رأوه فيها من زخارف البناء وبدائع الفنون، وابوا الّا ان يظهروا اعجابهم بما بهر عيونهم «من الرخام الذي لا يطرد ماؤه ولا يتطرد لالأوه، والحديد الملطف في تجزيعه والمتفنن في توسيعه» فلم تكن الحروب مانعاً دون انجاز الافرنج اعمالاً عمرانية رائعة

١) راجع انلار ٢ : ٤٥

٢) راجع المختار من ترجمة صلاح الدين لابن خلكان *Hist. Crois. III, 421, 425.*

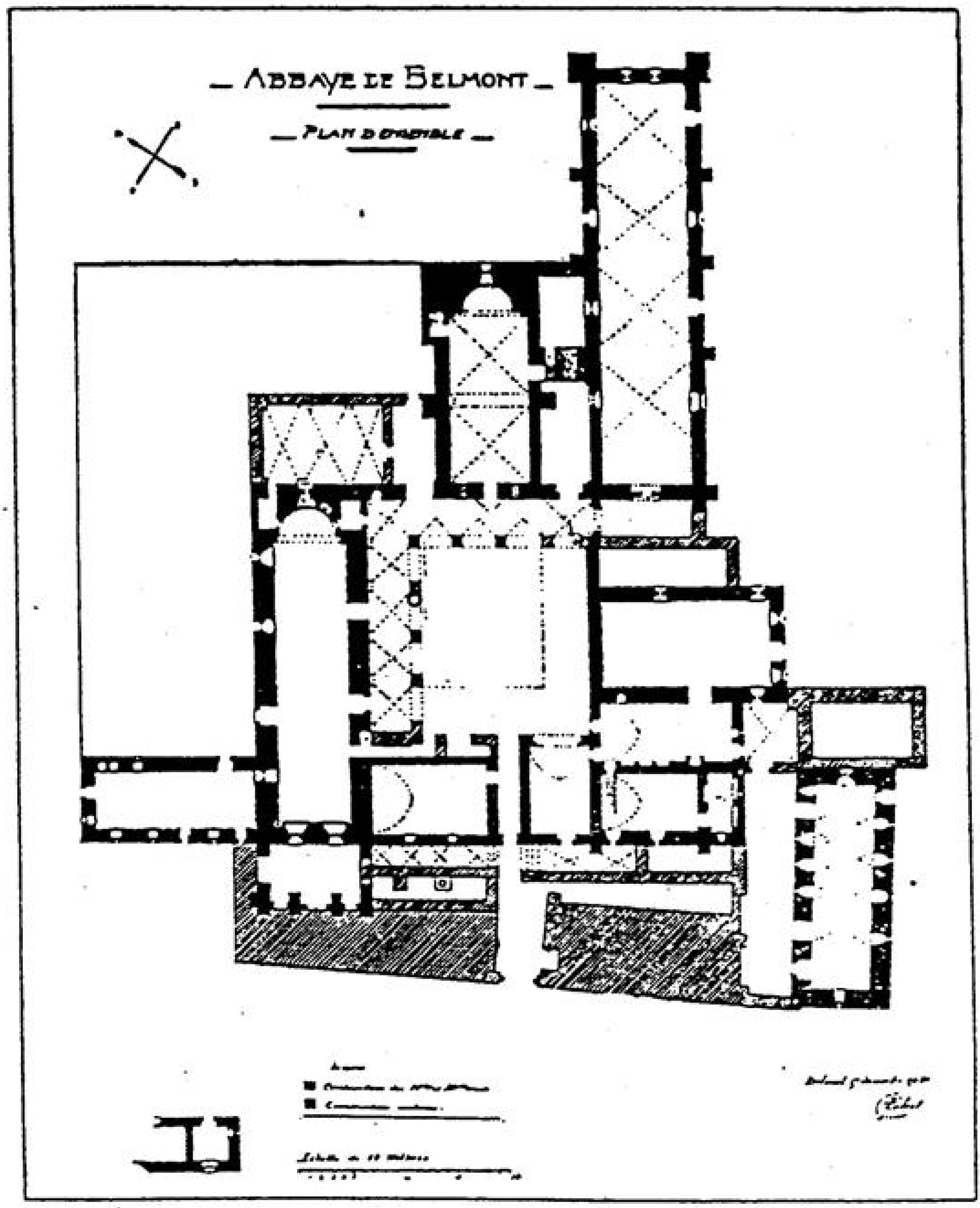

الرسم ١ : رسم عام لدير البلمند ، رسمه انلار في الدير نفسه سنة ١٩٢١

الاسود : يدلّ على البناء الراقي الى القرن الثاني عشر والثالث عشر
المخطط : يدل على بناء احدث من الاول

ممّا « لم تقوَ عصور الخراب على هدمه » (رنان) ومنها دير البلمند . وان افصح شاهد لفضلهم عليه هي آثارهم الثابتة الى يومنا وقد برزت الى النور باجلى مظاهرها ، على يد العلّامة انلار .

آثار الصليبيين في البلمند

منها اولاً الآثار الخطية المحفوظة في سجلّ وقائع الرهبان السترسيين السنوية ، جاء فيها ما يلي :

في السنة ١٢٣٨ عهد البابا غريغوريوس التاسع الى رئيس البلمند بامر الفحص عن قانونية انتخاب اسقف بيت لحم . وفي السنة ١٢٤١ ظهر في احدى الوثائق اسم الاخ توما والاخ لانتير « الكلارجي » كشاهدَي حال . ونال دير البلمند براءات من البابا اينوشنسيوس الرابع سنة ١٢٥٠ واوربانوس سنة١٢٦٠وجاء ذكر رئيسه في بعض الآثار الخطيّة سنة ١٢٠٨ فلقبوه « بريور » (Prieur) ، وذكر في غيرها من الآثار المؤرخة في سنة ١٢٣٨ و ١٢٥١ و ١٢٥٣ فلقب « انبا » (Abbé) . والفرق بين اللقبين ، في الارجح ، دليل على ان الدير الذي يرأسه الانبا هو اعظم شأناً من الدير المنوط امره بالبريور ، فيبدو من ثم شأن دير البلمند في تلك الايام وما بلغ اليه من الاهمية في عهد الصليبيين . فلا يصح القول انه خرب على يدهم . وفي السجل المذكور آنفاً ظهر سنة ١٢٦٠ اسم « اسطفان » احد اخوة دير البلمند ، وذكر فيه سنة ١٢٨٢ اسم الانبا بطرس الالماني ورفيقه سمعان الطرابلسي . وفي السنة ١٢٢٢ ارسل انبا البلمند تحريراً الى رئيس اساقفة قبرس طالباً منه ان يعترف برئاسة رئيسة الراهبات السترسيات على نيكوزي في قبرس ، وذلك ايضاً مما يدل على اهمية الدير وعمرانه في عهد الصليبيين ، فليسوا اذاً هم الذين خربوه .

وبموجب براءة اينوشنسيوس الرابع وضع البلمند تحت سلطان اسقف بيروت . وفي خريف ١٢٧١ كان في طرابلس انبا الرهبان السترسيين وهو رئيس البلمند فكتب : « لقد تأخرنا في مدينة طرابلس ولا نجسر ان نعود الى الدير » . وان آخر ما ذكر عن البلمند في ذلك العهد كان في السنة ١٢٨٧ ، ولا بد من ان رهبان اللاتين اجلوا عن الدير سنتين بعد ذلك . هذا ما لم يكونوا قد قُتلوا عند دخول قلاوون طرابلس سنة ١٢٨٩ . وان اسم البلمند في تلك الآثار القديمة اتى بصورة بلمونت او فلمون او بوليو ، ومعناه الجبيل الجميل ، او المقام

لجميل ، وهذا الاسم هو لاتيني الصيغة ، ومؤيدٌ لقولنا ان أصل البلمند لاتيني .

ومما يزيل كل داعٍ للشك في صحة قولنا هي الآثار المنقوشة بزخارف البناء وفنونه الراقية الى القرن الثالث عشر ، الدالة على ان البلمند كان في ذلك العهد بحالة ازدهار ونجاح . تلك الآثار يجدها زوّار البلمند في يومنا بعضها مرصوصة بالبناية القديمة ، وبعضها نقلت من مكانها فاستخدموها في بنايات الدير الجديدة التي احدثت فيه منذ مستهل القرن السابع عشر وقد يتاح للقارئ ان يرى رسومها في هذا المقال . وتحقق انلار ان احجار رواق الدير مأخوذة من البناية الغوطية الاصلية .

وقال في تاريخ البناية : ان عمار البلمند تمّ في القرن الثاني والثالث عشر ، وآثاره الاعرق بالقدم معاصرة لسني بنائه اي من ١١٥٧ الى ١١٦٩ ، والاحدث عهداً منها كانت قد تمت او كادت لما نُكب الصليبيون سنة ١٢٨٩ في موقعة حطين . ولم ينفِ انلار نفياً باتاً امكان وجود كنيسة بيزنطية في العصور الخوالي شيّدت من ثم على آثارها كنيسة البلمند السسترسية . ولكن فن بناء الكنيسة الحالية لا يدع مجالاً للريب باصلها اللاتيني .

وقال في الكنيسة (ص ٥٠) : انها مثالٌ رائع للتقشف السسترسي لانه ليس فيها الّا رواق واحد وصدر واحد . امّا سمك جدرانها فنحو المترين . والقبو علوّه عشرة امتار ونصف متر وواجهة الكنيسة عرضها ١١ متراً ونصف المتر . وليس فيها مرتكز لا في الخارج ولا في الداخل . وليس تحت سقفها من قناطر تلهي النظر عن عراها الوسيع . وشبابيكها الثلاثة القديمة ، وبابها المسدود الواقع شمالاً مجرّدة من الزخارف .

وليس الشباك الكبير الاوحد في صدر الكنيسة هو دونها بساطةً . امّا بناؤه فقد ترمم وشيد مجدداً في القرن الثالث عشر . ومن امثاله شبابيك موجودة في طرطوس وبيروت .

ومن آثار البلمند الشهيرة قبة الجرس وشأنها عظيم في نظر العلماء لانها نادرة من نوادر ما بقي من البروج الصليبية ، التي صبرت على حروب المسلمين

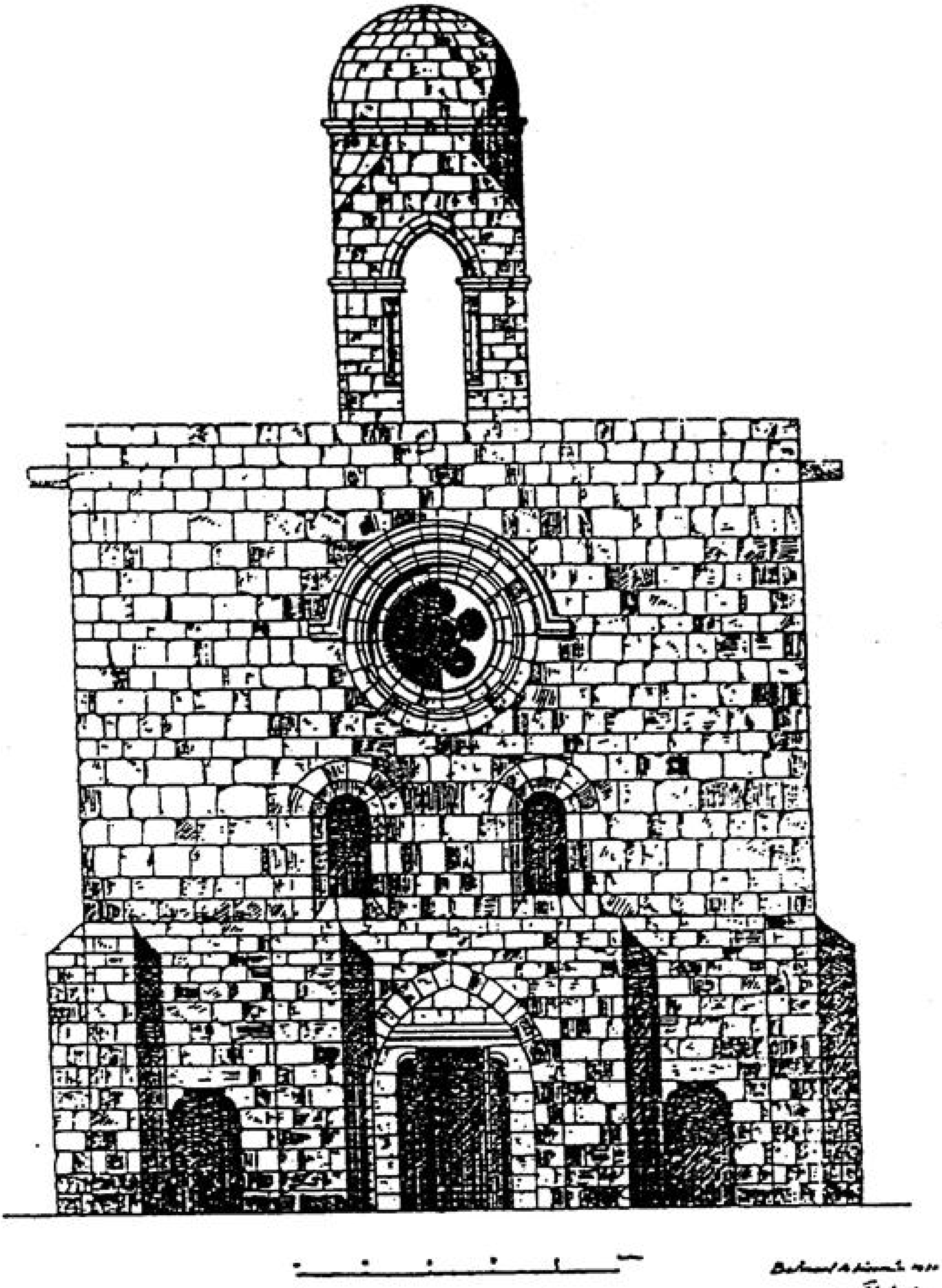

الرسم ٣ : واجهة كنيسة البلمند

كما رسمها انلار في الدير نفسه في ٤ كانون الاول ١٩٣١

وعلى الزلازل . والقبة الباقية الى يومنا من بناء القرن الثالث عشر ، اعني نحو مئة سنة بعد نهاية كنيسة الدير ، وهي على الطرف الشرقي من قبو الكنيسة (انظر الرسم ٥)

واطلق العلامة انلار قلمه في وصف الدير والكنيسة وملحقاتها وصفاً علمياً مدققاً ، فوسم كل قطعة من البناء وكل عضو من اعضاء المعهد باسمه الفني ، وقد لا يهتدي الى فهم كتابه بكماله الّا المتضلّعون من فنّ البناء النظري المتذرّعون عليه بمعجم خاص.

واننا نعجب بغناء اللغة الافرنسية على ما يجد العلماء الاختصاصيون فيها من الالفاظ لكل فرع من فنونهم،ونتمنى للغة العربية ان يألف الناطقون بها تسمية تفاصيل الاشياء باسماء عربية ، على مثال اخواننا الافرنج ، اذا دقّقوا وتعمّقوا في مباحثهم.

وحسبنا ان نحيل القارئ الى مؤلّف انلار فيتثبت بنفسه بانه لا سبيل بعد قراءته الى الشك بان البلمند من بناية الصليبيين . ونأتي الآن على البحث في تاريخه الحديث

تاريخ البلمند الحديث

قال مؤرخ البلمند في مجلة الكلمة (ص ٣٧٩) : « فتشت اغلب المخطوطات المحفوظة في مكتبة الدير وعثرت على اسماء الرؤساء جميعهم فاني رأيت في كل كتاب عدة اخبار عن الرؤساء والزوّار الذين كانوا يزورون الدير ويطالعون المخطوطات فاقتطفت ما يناسب غايتي من تعريف اسماء الرؤساء من زمن تشييده سنة ١٦٠٣ الى اليوم.»

تتبع المؤلف وقائع الدير على توالي السنين ، فحصر همه في تأدية اسماء الرؤساء ، وذكر اعمالهم في سبيل انماء واردات الدير وتحسين احواله المادية . تلك كانت غايته. ولم يذكر شيئاً عن الحياة الروحية في الدير ، ولا عن الرجال الذين اشتهروا فيه بتقواهم ، ولا عمّا كان له من المكانة في تاريخ الشرق المسيحي . بيد انه من المعلوم ان في القسم الاول من القرن الثامن عشر ،

حدثت في بلادنا وقائع لعب فيها دير البلمند دوراً مهماً . فضرب مؤرخه في مجلة الكلمة صفحاً عن ذلك ، وفيما هو يسرد حلقات السنين منذ اوائل القرن السابع عشر الى يومنا ، لما وصل الى السنة ١٧١٣ ، قطع السلسلة فاسقط منها حلقات ، ثم عاد وربطها عند السنة ١٧٤٩ . فلماذا اهمل تاريخ تلك الايام ؟

ان تاريخ الرهبانية الحنَّاوية الكاثوليكية المنشأة في البلمند ، وغير ذلك من الوثائق تنبئنا بان وقائع خطيرة جرت في البلمند على تلك الايام . فنقبنا عليها ، ورويناها سدّاً للخلل الواقع في التاريخ الذي نشرته الكلمة .

حركة الكثلكة في البلمند

في اوائل القرن الثامن عشر كان في البلمند كاهنان ، اسمهما جراسيموس وسليمان ، درسا في معهد الآباء اليسوعيين في طرابلس ودخلا من ثم في دير البلمند . وكانا قبل دخولهما الدير قد تدربا في مسالك الحياة الروحية بارشاد الاب فرسو اليسوعي . فلما لبسا الاسكيم ظهرا قدوةً صالحة بين الرهبان ، فسُمح لهما الاتصال بالمكاتبة مع الاب فرسو . وما عتم ان جاء الاب بذاته الى الدير وصار يرشد الراهبَين ، ومن كان يحذو حذوهما في الغيرة على الحياة الكاملة . وما مضت ايام الّا اصبح معظم الرهبان على الايمان الكاثوليكي . ولا عجب ، والسواد الاعظم من الروم الارثوذكس لا يكاد يرى فرقاً بين اعتقاده والاعتقاد الروماني .

وكانت في تلك الايام قد قويت حركة اتحاد الروم الملكيين برومة ، حتى ادّت الى اقامة بطريرك لهم مستقلّ بشأنه ، مما اثار زوبعة الاضطهاد عليهم من بطاركة اليونان فحرم البطريرك سلفسترس دير البلمند ليضطره الى العدول عن الكثلكة . وانقسم رهبان البلمند حزبين ، وما لبث ان قوي الحزب المتمسك بالانفصال عن رومة ، فالجأ الرهبان الكاثوليك الى الرحيل . فرحل هؤلاء بعدد تسعة ومن جملتهم جراسيموس وسليمان واسسوا الرهبانية الحناوية في الشوير[1] .

١) صدى الشرق ٥ : ٢٠

وقد شهد على صدق الحادثة بجوهرها القنصل الفرنساوي في حلب ، فكتب الى وزارة حكومته تحريراً في تاريخ ٢٠ كانون الاول سنة ١٧٢٥ قال فيه[1] .

« في ٩ تشرين الثاني من هذا العام وصل الى حلب البطريرك سلفستروس اليوناني الانطاكي . وفي اليوم التالي ، وكان يوم الاحد ، اصدر ٤٠ او ٥٠ حرماً ضد اربع كهنة كاثوليك من اهل طائفته في حلب ، وضد دير الرهبان الروم المعروف بالبلمند بالقرب من طرابلس ، وضد كل الذين يلبسون ثوب السيدة ويتمنطقون بزنار القديس فرنسيس او يشتركون باخوية الوردية عند الموارنة . »

هذه الحوادث سكتت عنها مجلة الكلمة ثم قالت :

« وفي السنة ١٧٩٢ سرق الرهبان الحلبيون مطبعة البلمند ومضوا بها الى مار يوحنا الصابغ في الشوير . »

ولكن لا اساس لشكواها ، لان المطبعة خاصة عبدالله زاخر الشماس الحلبي ، فانه صنعها بيده وكانت مقتناه الشخصي . وقد اتيح لنا ان نشاهد بقاياها ابان زيارتنا لدير مار يوحنا الصابغ في الشوير في العام الماضي . وفيما رأيناه من جملة آثار تلك الايام صورتان احداهما تمثل قلب يسوع والاخرى سيدة الكرمل ، وكلتاهما اتى بهما الرهبان الشويريون عند نزوحهم من البلمند ، ووضعوهما في ديرهم اساساً لرهبانيتهم .

سكتت مجلة الكلمة عن هذه الاخبار . على انها في مجلدها العاشر في ص ٦٠٨ ، اسهبت في الكلام على بعض ما جرى من التجدد الرهباني في اوائل هذا القرن . وقد يفيدنا النظر فيه لنقف على اصل الحركة الاصلاحية العصرية في طائفة الروم الارثوذكس .

حركة الاصلاح

في السنة ١٩١٣ حاول بعض سكان الدير انشاء جمعية اصلاحية ، فتحالفوا

---

١) مجموعة رباط *Documents inédits* ، ص : ٥٨٦

عليها وكتموا امرها حتى اصطبغت بصبغة الجمعيات السرية. واليك اسماء اعضائها كما ذكرتهم مجلة الكلمة (١٠: ٦٠٨) : القس رفائيل نمر (ومن ثم مطران حلب) والشماس غفرائيل كردوس (ومن ثم مطران طرابلس) والشماس ايصائيا عبود (ومن ثم ارشيمندريت ورئيس دير مار جرجس الحميراء) والشماس رزق‌الله ابو حطب . وقد اسسوا هذه الاخوية في دير البلمند ، واقسموا على انهم يضحون كل نفيس وغالٍ في سبيلها ، وقرروا ان تبقى سرية خوفاً عليها من سطوة الرؤساء وبطش الكبار . فاستنكر البطريرك تأسيس الاخوية معتقداً ان الماسونية هي التي وضعت اساسها ورسمت خططها ، فامر بوجوب الغائها « متذرعاً بالضغط على اعضائها . فخافوا وتظاهروا بالخضوع لكنهم تعاهدوا سراً على الثبات في مبدأهم حتى الممات » (الكلمة ٩: ٦١٠) واختلف الاساقفة على امر الاخوية ، اما الشعب فاستحسن مبدأها.

فعاد رجال الاخوية يسعون في سبيل تحقيق امانيهم وقالوا : لقد نشأنا في معهد واحد ونحن اخوان . فهلمَّ نبنِ بناية جميلة على اساس المحبة الصادقة والتعاون الاخوي حتى اذا ما كبرنا وصارت الينا مقاليد الامور كنا اعواناً على الدهر واصلحنا الحال . وان دعا مركز ما واحداً منا لاشغاله ساعده الآخرون للحصول عليه . وفكروا بالطريقة المؤدية الى الاصلاح الطائفي وهو ضالتهم المنشودة فرأوا انهم لا يبلغونها الّا بتأسيس مدرسة مجانية داخلية عليا ، والسعي في سبيل توحيد الاديرة وتأسيس رهبنة ارثوذكسية . ولكن هيهات ان يتم اصلاح في كنيسة الله من غير ان ينشأ فيها بقوة مؤسسها الالهية ، وبالطرق الاصولية القاضية على الجسم بان ينال حياته ونوره من رأسه . فلم تنجح مساعي الجمعية الاصلاحية لا باحياء مدرسة مجانية داخلية ، ولا بتأسيس رهبانية ارثوذكسية . وجلّ ما صدر عنها ، على ما يبدو للعين من احوال الطائفة حالًا ، انها هيأت الافكار الى التساهل الديني الى درجة اصبح فيها الرجل الماسوني المعروف موشحاً لمراتب الكنيسة العليا وله بين اصدقائه واوليائه مناصرون على امره.

وما اشد احتياج المسيحيين الى رجال مخلصين للمسيح في هذه الايام

العصبية الطاغية فيها امواج الفتور الديني المؤدية بالنفوس الى نبذ الايمان والى الكفر . وما اعظم افتقار المسيحيين الى رجال فضل وتقى متأهبين بالصلاة والحياة النسكية لان يكونوا قدوة للشعب ، ورعاة لخراف المسيح.

اننا من صميم القلب نسأل الله ان يقيم من امثال هؤلاء الرجال في مصاف اخواننا الروم ، ويؤيدهم بحكمته ونوره ، ويزينهم بالفضائل الانجيلية التي تزدهر بها الحياة المسيحية وتنمو ، حتى اذا اضطرمنا اجمعين بمحبة واحدة للرب يسوع تقربنا الى وحدة الايمان تحت رعاية الراعي الواحد . ومما يزيدنا املاً بتحقيق هذه الاماني ما كتبه العلّامة انلار على دير البلمند من كلمات عسجدية نقلد بها ختام مقالنا ، وهذه هي: «ما زال دير البلمند مقاماً للاعتزال عن العالم هادئاً ،صالحاً للحياة النسكية فان الاكباب على الدرس والمطالعة ، وممارسة الفضائل يجعلانه بستاناً مزدهراً على الدوام.»

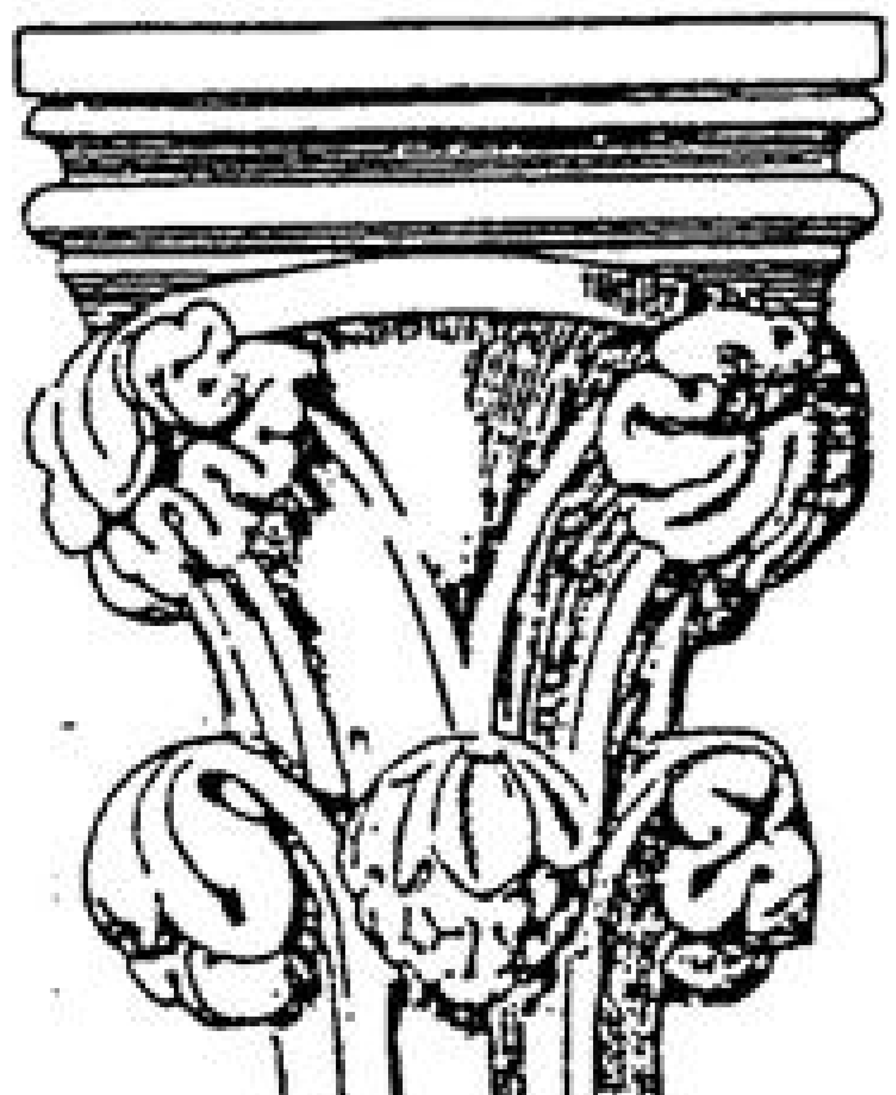

الرسم ٦ : مسند لاحدى القناطر
(من اوائل القرن الثالث عشر)

دور البطيخ ببغداد وغيرها

في عهد العباسيين

بقلم الاديب حبيب زيات

كان لبيع البقل في غالب المدن والبلاد اسواق او عَرَصات خاصة تسمى «دور البقل» ، وعليها ناظر لاستيفاء الحقوق السلطانية. ويظهر ان بيع الفواكه لم يكن داخلاً فيها ، بل له دور منفردة تدعى «دور البطيخ» ؛ إمّا لان البطيخ كان اول ما بيع فيها ، وإمّا لانه كان يشغل اكثر هذه الاسواق لوفرته وكبر حجمه ، فغلبت التسمية به على سائر الفواكه. ولذلك لمّا مدح ابن الرومي ابا الصقر اسماعيل بن بلبل ، وزير المعتمد ، بقصيدة نونية طويلة اولها:

أجنت لك الوصلَ اغصان وكثبانُ   فيهنّ نوعان تفاح ورمانُ
غصون بانٍ عليها الدهرَ فاكهةٌ   وما الفواكه مما يحمل البانُ

سمى الناس هذه القصيدة «دار البطيخ» لكثرة ما فيها من ذكر الفواكه. قال ابن الطقطقي: وكان الموضع الذي تباع فيه الفواكه يسمى دار البطيخ[1]. وفي ياقوت: دار البطيخ محلة كانت ببغداد تباع فيها الفواكه[2].

وكانت سوق البطيخ في بغداد تقام اولاً في درب الاساكفة ، ودرب الزيت ، ودرب العاج . ثم نقلت في ايام المهدي الى الكرخ ، كما جاء في ياقوت ايضاً ، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي[3].

على ان هذا الاسم لم يكن خاصاً ببغداد وحدها بل كان شائعاً في كثير

١) الفخري ، ص ٢٢٩

٢) معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥١٧ ، طبعة ليبسك

٣) G. Salmon, *Introduction topographique* p. 100 et 155

من البلدان . وكانت العامة تقول فيه « دار بطيخ » باسقاط لام التعريف تخفيفاً على سبيل التركيب المزجي . قال الثوري في كلامه عن الاهواز: « نهر البط نهر كانت عنده مراع للبط فقالت العامة نهر بط كما قالوا دار بطيخ »[1] وقد جمع ابن لنكك بين اللفظين المركب المزجي الغير المنصرف للعامية ، والمضاف ، حيث قال يهجو ابا الهيذام كلاب بن حمزة.

انت ابن كل البرايا لكن اقتصروا على اسم حمزة وصناً غير تشميخ
كدارَ بطيخَ تحوي كل فاكهةٍ وما اسمها الدهر الا دارُ بطيخ[2]

وكان بدمشق دار للبطيخ معروفة ببيع كل الفواكه ، ورد ذكرها عَرَضاً في عدة مواضع من كتب الاخبار والسير . وفيها اكتسب الوأوآء الدمشقي شهرته الذائعة . قال الثعالبي : « من اعجب شأنه ما اخبرني به ابو بكر الخوارزمي قال : كان الوأوآء منادياً في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه . »[3] وكانت وظيفة استيفاء الرسوم فيها مختصة في آخر عهدها بارباب السيوف ، يُولّى بها اجناد بتواقيع عن النائب بدمشق . وتسمّى هذه الوظيفة « شدّ دار البطيخ والفاكهة »[4] ولها ديوان خاص ورد ذكره في حوادث سنة ٦٩٧ من تاريخ الجزري . قال بلهجته العامية : « فيها انتقم الامير سيف الدين جاغان من نائبه بدمشق نائب الشد ... ومن ديوان دار البطيخ وانتقم منهم غاية الانتقام وصادرهم واخذ جميع ما يملكوه[5] . »

على اننا لا ندري ما كان مقدار هذا المكس الذي كان يؤخذ على الثمار والبقول ، لعدم احتفال الكتبة والمؤرخين بالتنبيه عليه ، وعلى بقية المكوس الديوانية . ولعله كان ثقيلاً كسائر الضرائب والمغارم . ولذلك لمّا دخل السلطان نور الدين دمشق ، في العاشر من صفر سنة ٥٤٩ ، رأى ان يتقرّب

١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٣٨٤ ، طبعة ليدن
٢) يتيمة الدهر للثعالبي ، ج ٢ ص ١٢٢
٣) يتيمة الدهر ، ج ١ ص ٢٠٥
٤) صبح الاعشى للقلقشندي ، ج ٤ ص ١٨٨
٥) تاريخ حوادث الدهر وانبائه ، باريس ٦٧٣٩ ، ص ٢٤١

من اهلها باسقاطه في جملة حقوق اخرى سلطانية . قال ابن القلانسي: «ثم احضر بعد غد ذلك اليوم اماثل الرعية من الفقهاء والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم ... ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل والانهار . وانشأ بذلك المنشور وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة»[1] وزاد الصفدي: «ابطال مكوس الكيالة وسوق الغنم وغير ذلك.»[2]

ومن الغريب ان ابطال هذه الحقوق لم يتجاوز اربع سنوات ، اواخر رجب سنة ٥٥٣ ، حتى قام قوم من سفهاء العوام وحسّنوا للسلطان نور الدين اعادة ما كان سامح به اهل دمشق من مكوس دار البطيخ وعرصة البقل والانهار ، وضمنوا له القيام بعشرة آلاف دينار عنها ، والحوا بذلك حتى أجيبوا ؛ فلمّا شرعوا بفرضها على ارباب الاملاك والاعيان والرعايا ضجّ الناس واستغاثوا بالسلطان ، فامر باسقاطها ثانية وتعفية اثرها . واضاف الى ذلك ، فيما رواه ابن القلانسي ، ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن تبرعاً من نفسه[3].

والارجح ان المسامحة بهذه الرسوم لم تدم طويلاً ، لكثرة طمع الولاة في اموال الرعية وشدة حرصهم على جبايتها ، حتى من المحرمات والمنكرات كضمان الفجور والخمور والقيان[4]. فكان يجتمع منها على الرعية ما كانت ترزح تحت ثقله . فكانت الملوك من مدة لاخرى لا ترى بدًا من التخلي عن البواقي منها ، او ابطال هذه المظالم باسرها . ولعل رسوم دار البطيخ كانت في ما اسقطه الملك العادل سيف الدين منها فيما نقله ابو المظفر سبط ابن الجوزي[5] . وجاء ابطالها ايضاً سنة ٨٠٦ ، على اختلاف في تاريخ الشهر ، ذكر المقريزي انه في تاسع عشر من جمادى الاولى نودي فيه في دمشق بابطال مكس الفاكهة والخضراوات[6]. ونقل ابن قاضي شهبه انه في ربيع الاول قال : «نودي فيه بابطال مكس الفاكهة والخضراوات بامر النائب . وكان يؤخذ على المقاثي

١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٧–٣٢٩ ٢) تحفة ذوي الالباب ، باريس ٥٨٢٧، ص ١٤٠
٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٢–٣٥٣ ٤) ذيل الروضتين لابي شامة ، باريس ٥٨٥٢ ، ص ١٣٠ والبداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني ، باريس ١٥١٦ ، ص ١٢١
٥) الوافي للصفدي ، ج ١ ص ٤١ ، باريس ٥٨٦٠
٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ص ٤١ ، باريس ١٧٢٧

وغيرها. وكتب في ذلك الى مصر ليجيء مرسوم السلطان بذلك . وذلك بعد ما احتال واشهد على المقطّعين من الاجناد وغيرهم انهم راضون بذلك فجاء المرسوم على حسب مكاتبة النائب في ذلك وبطل واستمر[1].

واما موقع دار البطيخ بدمشق فلا شك انه تغير بتغير الدول وكثرة ما توالى على المدينة من الحريق والخراب والهدم والبناء . واقدم ذكر ورد لها ما رواه ياقوت من الاخبار القديمة عن شيوخ دمشق الاوائل زعموا فيها «ان دار شداد بن عاد في سوق التين يفتح بابها شاماً الى الطريق وانه كان يُزرع له الريحان والورد وغير ذلك فوق الاعمدة بين القنطرتين قنطرة دار البطيخ وقنطرة سوق التين.»[2] ولكن لم يعين احد فيما نعلم موضع سوق التين او التبن . ثم جاء القرن السابع للهجرة فذكر ابو شامة في كلامه عن وفاة معين الدين أنر سنة ٥٤٤ «ان قبره في قبته بمقابر العونية شمالي دار البطيخ الآن»[3] وليس بيدنا كذلك ما يعين على تحقيق مكان هذه المقابر التي كانت دار البطيخ عن يمينها ، فلا ندري هل كانت قريبة ام بعيدة عن عمارة بهادر التي نص ابن قاضي شهبه على انها كانت سنة ٧٩٣ خلف دار البطيخ . وغاية ما نعرفه ان بيت بهادر هذا كان وقتئذٍ في سوق الغنم[4].

واخر ما ورد ذكر دار البطيخ بدمشق مع بعض تعيين لموقعها في قول البدري من المتأخرين«ومن محاسن الشام تحت قلعتها . . . وهي ساحة سماوية . . . تحفها الدور وتعلوها القصور . . . فيها دار البطيخ الذي (كذا) يباع فيه جميع فواكه البلد . وبه العين المشهورة المجمّع[5] على برودة مائها وعذوبته وخفته.»[6] ومن ثم يترجح ان دار البطيخ كانت قريبة من سوق خان الباشا المشهورة اليوم ببيع الفواكه ، ان لم تكن هي هي بعينها.

١) الذيل ، ج ٢ ص ٢١٣-٢١٤ : باريس ١٥٩٩ ٢) معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٨٦

٣) كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٦٤ ، طبعة مصر ١٢٨٧

٤) الذيل ، ج ٢ ص ٦٥-٦٦ [ووراه موضع فندق الخشب قبلي دار البطيخ (ترجمة مسلم بن عُقبة في ابن عساكر نسخة مكتبة الملك الظاهر المجلد السادس عشر) ه.ل]

٥) في المتن المطبوع « وبه العين المشهورة بالمجمع » وهو غلط

٦) نزهة الانام في محاسن الشام ، ص ٦٣

التذكار المئوي

للمرسلين العازريين في دمشق

بقلم القس مبارك ثابت اللبناني

٢

العهد الثالث

١٨٦٠ - ١٨٦٥

صار ابتداء الهجوم على حي المسيحيين في منتصف الشطر الثاني من نهار ٩ تموز سنة ١٨٦٠ . هوجمت اولاً دار قنصلية روسية ، ثم انتشر الثائرون في الحي يحرقون ويذبحون ، واحمد باشا في القلعة يتفرَّج لا يأمر ولا ينهي . الّا ان صالح زكي بـك امير الآلاي استقلّ بالامر ، فصبَّ الجندُ مطرة رصاص على المدمرين واطلقوا عليهم قذيفة مدفع فتراجعوا . وقبل ان يفرقوهم نُفخ في البوق ، فارتدّ العسكر الى الثكنة ، والسفاحون الى المذبحة . ورجال عبد القادر يخطفون الفرائس من ايدي الفاتكين ، وقد وقعت مهابتهم عليهم ، فكان الواحد يخفر ٢٠ مسيحياً ولا يجرؤ احد على التصدّي له . ولما ضاقت دار الامير باللاجئين ، فاوض المشير احمد باشا فآواهم في القلعة وقد ناهز عددهم العشرين الفاً من مسيحيي الشام والفازعين اليها من اهل حاصبيا وراشيا والقرى المجاورة .

وكان الناس حتى الصبيان يعدون في الشوارع ذهاباً واياباً صائحين : اقتلوا ، انهبوا ، اسلبوا ، لا تهابوا الحكومة ولا العسكر فانه لن يتصدّى لكم احد . فاسرفوا في ذلك واحرقت الكنائس والاديار وكل مباني العازريين والعازريات ، ودور القناصل ، ما خلا داري قنصلي روسية وانكلترة .

ولمّا اضطر قائد القلعة لفتح ابوابها للفاتكين ، وكان جندياً باسلاً عادلاً وتقياً . وكان المرسلون العازريون ممن نُقلوا الى القلعة ، وقع الخوف على جميع

من فيها ولاسيا اهل حاصبيا الذين ذُبح اخوانهم في سراي الحكومة كأهل دير القمر ، فخلا الاب ناجان بالقائد ونبّهه الى الخطر وقال : « ان هؤلاء المروَّعين كلهم في ذمتك ». فانتصب القائد ورفع رأسه شهامة ونزاهة وقال : « انا جنديٌ وعلى الجندي الطاعة فسافتح الابواب . غير اني اكبر شيمةً من ان أريق دم جماعة عُزَّل لا يقاتلون.»

ثمَّ انه فتح الابواب ونصب فيها مدافع محشوة رصاصاً وحديداً ، تحدّث وهي صامتة ، عمّا يصنعه القائد بالمحاصرين اذا حرّكوا ساكناً . فلما رأى المحاصرون منه ذلك وقع عليهم الرعب ورجعوا يتعثرون باذيال الفشل . ومكث الخائفون في القلعة يصاولهم الجوع اكثر من شهر . وكان في دار الحكومة كاتب يُدعى محمود شريف افندي سأله الاب ناجان ان يعمل لاعاشتهم فوعده ان يهتم بجميع المنكوبين حتى يوم مسيرهم الى بيروت . والحَّ القناصل على الوالي فأمر بتوزيع القوت . ومما كتبه الاب ناجان في ذلك قوله: « قامت الحكومة التركية بتوزيع القوت يومياً على اولئك الجياع التعساء . وجاءتهم الصدقات من كل انحاء اوربة وبلغ ما تصدّقت به فرنسة وحدها من نقد وميرة خمسة ملاوين فرنك.»

استمرت المذبحة ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ فقدّر عدد القتلى بثلاثة آلاف نسمة وقدره بعضهم بخمسة آلاف نسمة من الدمشقيين واللاجئين الى دمشق . وقدرت البيوت المحرقة بالف وثلاثمئة بيت ، والخسائر بمليون ونصف مليون ليرة .

وخلع فؤاد باشا احمد باشا والي دمشق ، وارسل عوضه والياً جديداً اصحبه بالف وسبعمائة جندي بقيادة خالد باشا فبلغوا الشام في ١٦ تموز . وفي ٢٩ منه قدم المدينة فؤاد باشا ، فارسل أحمد باشا الى الاستانة مخفوراً ثم ارسل خورشيد باشا لا بصفة سجين . واخذ يسترد المسلوبات ويقبض على بعض المجرمين ؛ الَّا انه لم يقبض الا على ٧٥٠ مجرماً والف مجلساً لمحاكمتهم فحكم عليهم احكاماً مختلفة . ولمَّا أنفذ حكم الموت باحدهم قتل المسلمون مسيحياً بدمه ، واذاعوا انهم سيقتلون مسيحياً كلما قتلت السلطة مسلماً . ولم

يكن مسلم يشهد على مسلم بقتل مسيحي. وفي ٢٣ آب بدأت السلطة بانفاذ الاحكام في المجرمين فلم يُقتل منهم سوى ٥٧ مجرماً ، اما الباقون فنفي بعضهم وسجن البعض الآخر.

اما المنكوبون فارتحلوا الى بيروت بخفارة رجال عبد القادر وبقي في الشام ٨٠٠٠ مسيحي اواهم فؤاد باشا في حيّ من احياء المسلمين ، وكانوا ينتقلون اليه من القلعة فوجاً فوجاً ، ولم تفرغ منهم القلعة حتى اواسط ايلول.

وفي اواسط آب اخذت البعثة العسكرية الفرنساوية تفد تباعاً الى بيروت وبلغ عدد الذين وصلوا منها خمسة الاف جندي منهم مائتا فارس ، ولديهم مدافع جبلية وكل معدات القتال. واعيد احمد باشا الى دمشق ليحاكم مع المتهمين فانتهى اليها في ١٥ اب. ثم انفذ فيه حكم الموت خفيةً ، وكذلك في بعض الضبّاط.

ولمّا علم اهل البلاد بقدوم العساكر الفرنساوية انزاح روع المسيحيين وابتهجوا في جميع الانحاء ، وجعل الدروز يهاجرون الى حوران ، وتوارى بعض الزعماء ، وبعض مسلمي بيروت ممن كانت لهم يد في المذابح. واتفق الجنرال بوفور قائد البعثة الافرنسية مع فؤاد باشا على الاشتراك في ما يجب اعتماده من التدابير لمعاقبة المجرمين ، وردّ المسلوبات ، والتعويض على المنكوبين ، واقرار الامن في البلاد واصلاح الحال. فتمكنا من بعض الغرض وكشفت المخاوف عن الناس ، وانتهت الاحداث باعطاء لبنان نظامه الجديد المعروف بفضل مساعي دول اوربة.

اما البعثة الافرنسية فمكثت في الاراضي السورية الى شهر حزيران عام ١٨٦١ ، وارتحلت في اليوم الخامس منه. وكان الاب ناجان العازري قد نُصب مرشداً روحياً لجنود البعثة فسافر معهم الى فرنسة. ثم عاد الى دمشق وقُلّد الرئاسة. فاستأنف عمل الرسالة وشرع يرمّم دير المرسلين ودير الراهبات. وتمكن من فتح مدرسة البنات عام ١٨٦٤ ، واستأجر لها ثلاث معلمات. وكان نجازهُ من ترميم الديرين في كانون الثاني سنة ١٨٦٥.

***

العهد الرابع

١٨٦٥—١٩٢٩

في عاشر شهر آب من هذه السنة ظهر الهواء الاصفر في دمشق منقولاً من مصر والاسكندرية ، حيث تفشى ومات به خلقٌ كثيرٌ ، فبطش بالدمشقيين وفتك . فبعثت الحكومة الافرنسية ثلاثة اطباء وصيدلياً اجابة لالتماس قنصلها المسيو جرود ، فنزلوا على العازريين وتفاوضوا في وسائل مقاتلة الوباء . وسهلت لهم الحكومة السبيل الى استعمالها . امـا الادوية فكانت توزع مجاناً بنفقة القنصلية الافرنسية . وما زالوا على ذلك حتى خفت وطأة الوباء وسُدَّ بوجهه مذاهب الانتشار . وما هي ستة اشهر حتى تقلص ظله الثقيل .

وفي ثامن شباط من السنة التالية فتحت مدارس المرسلين للذكور بثلاثة صفوف تولى تدريسها الاخوان كات وقسان . وعهد بتدريس العربية الى الاب نحاس ، كاهن سوري يُعرف « بابونا ميكال » ، وولي مراقبة الدروس الاب زيات . وفي نهاية السنة المدرسية ترأس حفلة الجوائز القنصل الفرناوي ومن حوله حاكم المدينة والقائمقام والقاضي . وكان هذا الدأب في ما تلا من السنين .

وفي ٢٥ اب من تلك السنة قدم الاب دومون والاخ برقه ، فقاما بمهمة التعليم عاكفين عليها بنشاط من العزم وارتياح من الطبع . وفي خامس تشرين الاول احتفل بتدشين الكنيسة السيد فالركا وكان بطريركاً اورشليمياً وقاصداً رسولياً في سورية ، بحضور المطران مكاريوس . وفي مذكرات الاب ناجان كلام عن حفلة طواف بالقربان الاقدس في ١٤ نيسان سنة ١٨٦٧ قال : «مشى الموكب الى كنيسة الروم الكاثوليك فكنيسة السريان واجتاز بمجي مصباح وبالقديس حنانيا . فلم تشهد دمشق مثل ذلك الطواف بما فيه من كثرة الحشد ومجالي العبادة والتمكن في الايمان منذ قرون .»

وكان ان الاب ناجـان اضطر للرجوع الى فرنسة سنة ١٨٦٨ انتجاعاً للعافية ، اذ كان قد نزل بجسمه الوهن لمواظبته ما شقَّ من الاعمال . فلما ظفر بضالته عاد الى دمشق ، ومعه ثاني راهبات من بنـات المحبة برئاسة الاخت

بيكو ، وهي التي كانت رئيسة الدير زمن حوادث سنة ١٨٦٠ . فلما بلغن ابواب الشام ارسل الامير عبد القادر لهن مركباته ، ولم يكن في دمشق من مركبات غيرها في ذلك الزمان. فاقلّتهنّ من محطة الداليجانس الى حارة النصارى واستقبلهن الدمشقيون بفرح واحتفاء عظيمين ، ولم تمض سنتان لمجيئهنّ ألّا انتظمت احوال الاخويات والراهبات وعادت المياه الى مجاريها.

ثمّ ان المطران مكاريوس اتى الى الاخت بيكو ببنت يتيمة مهملة فقبلتها فجيء بكثيرات من امثالها ففتح الميتم للبنات وعاد الى احسن حال . ومضى الراهبات يصنعن ضروب الاحسان الى الشعب غير ناظرات الى اختلاف الاديان فكان اليهود والمسلمون والروم الارثوذكس والكاثوليك من كل طقس يصيبون من احسانهنّ ، واجدين عندهن دواء لعللهم وتخفيفاً من الكروب . فقالت الاخت بيكو في بعض مكتوباتها : « كان المسلمون يروننا اناساً لا كسائر الناس ويفوتهم فهم ما يرونه عندنا من طريقة الحياة ، غير انهم يعدونها طريقة فريدة وسامية. »

ومن نكد الطالع ان هذه الرئيسة الحكيمة الفاضلة لم يطل عمرها فوافتها المنية في سن الخامسة والخمسين . فأقيم لهـا مأتم حافل شهده الحبران يعقوب مطران السريان ومكاريوس مطران الروم الكاثوليك ، وبعض رجال الحكومة وقناصل فرنسة وانكلترة والنمسة ، واعيان البلـد ، وخلقٌ كثير . فدُفنت مكفنة بالاكرام والرحمات والدموع.

ثم زحف الهواء الاصفر على المدينة بجيش من الهول يضرب بصارم الفناء. فامتلأت قلوب الناس ذعراً وفرّ من وجهه اسرٌ كثيرة ، ولعبت ايدي التشتيت بالدارسات فاقفلت الراهبات المدارس وتقاسمن احياء المدينـة متهالكات في خدمة الموبوئين وعلاجهم ، وسدّ حاجات الفقراء منهم والمهملين . وخلوّ المدينة من مستشفى كثرت ضحايا الوباء ، ولاسيا في الاسر الفقيرة وبلغ الراهبات التعب من خدمة المرضى في البيوت.

وفي ثاني كانون الاول سنة ١٨٨١ أنشيء مستوصف في محلة الميدان على يد الاخت مينار (Minart) توزع منه الادوية في ثلاثة ايام من الاسبوع على

مئتين وخمسين مريضاً من الفقراء . وكان الناس يذكرون الراهبات بخير في كل مجلس ويثنون عليهن لآليَ الثناء . وقد قالت لهن سيدة مسلمة من ذوات النباهة والمحتد الكريم في حديث لها معهن: ما بنات المحبة ألا ملائكة الرحمة ارسلهن الله الى الناس معزيات في الحزن ، ومقويات في الاوهان ، وعاضدات للبائس ووصيات على اليتيم . لقد ملأتنَّ القلوب فرحاً بما تعملنه من جميل المعروف والعناية الى الجميع .

بعد حوادث ١٨٦٠ وجّه الاب تاجان عزيمته الى تجديد ابنية الرسالة وجدّ في ذلك كل الجدّ دائب السعي لا يطمئن جنبه الى مضجع . فبنى الجانح الوسط الذي بازاء الكنيسة واشترى عدة بيوت تجاه واجهة الدير على طولها ونقضها ، ورفع في مواضعها البناء الذي يشتمل اليوم على قاعات الدرس الثلاث المدشنة عام ١٨٨١ .

ثمَّ سافر الى فرنسة التماساً للراحة ، واستحصالاً لمال يتمّ به ما بدأه من الاعمال . فحال دون رجوعه حائل المنون . اصابه سرطان في المعدة استنزف حياته فادركته الوفاة عام ١٨٨٣ ، وهو في دير المرسلين الامّ في باريس . فلمّا انتهى نعيه الى دمشق قامت فيها قيامة الحزن واستولى الاسف على جميع عارفيه ، واكبروا الرزء به لما كان له من كثرة الحسنات وما فقدوا به من ناصر قويّ لكل مشروع خيري . وهاك ما كتبه عن ذلك السيد كروزه في بعض رسائله: « فاجأنا هذا الخبر الفاجع ففتّت اكبادنا جزعاً واغرقنا في لجة الحزن . وامست الشام كلها في اسف على الفقيد . لقد فقدنا به صديقاً حميماً واباً حافل الفؤاد بالعطف والحنان . فيا للفجيعة ! ويا للخسارة البالغة ! »

وفي رسالة اخرى بتاريخ ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٨٥ اطنب في رثائه معدداً فضائله الزاهرة وخلاله الباهرة ومآثره السائرة . ولاسيما علوّ همته وثابت عقده وماضي صريمته . وذكر في جملة الادلة على غيرته الرسولية ومحبته للقريب حادثاً وقع له في حلب . قال : « استيقظ الاب تاجان صبيحة يوم على قصف المدفع وزمزمة الرصاص ، فاذا المدينة في قبضة الخوف والناس يفزعون الى دار الرسالة . ففتح لهم الابواب . وفي اقلّ من ساعتين بلغ عدد اللاجئين اليها

٦٠٠ نفس . فلما نفد ما عنده من القوت وامتنع الخروج لامتيار الطعام لاشتداد الخطر ، فكّر في وجوه الحيلة فلم يهتدِ الى شيء يكون معه في امن من الخطر . فاخذ كتاب صلاته وخرج وحده يتخطى بين الاخطار في الشارع حتى انتهى الى دار القنصل الفرنساوي ، فلما رآه القنصل ومن عنده من الجالية الافرنسية استغربوا قدومه على هذه الحال وعدّوه اسرافاً في الجرأة وحماقة وصاحوا ووقعوا عليه باللوم قائلين : ما نحمد اقتحامك الخطر وان سلمت . قد خرجت عن سنن الفطنة والحذر . قال : ما لكم والعذل ! انّ في دار الرسالة ٦٠٠ نسمة بلا طعام ارسلوا اليهم ما يأكلون ثم قولوا ما شئتم . قال القنصل : طب نفساً فانا الساعة نحمل اليهم ما يأكلون . فشكر له وهمّ بالانصراف . فنعه بعض من حضر خوفاً عليه من الخطر فلم يملكوا ازالته عن عزمه . فاكرهوه على خلع ملابسه الاكليريكية وجعلوا عليه اللباس القنصلي وارسلوه بخفارة قواسين من رجال القنصل مسلحين . فلما انتهى الى دار الرسالة ، وعليه تلك الملابس ، تعجب الناس واقبلوا يهنئونه بالسلامة ويحيّونه بتحية الشكر ويلقبونه بمجير الملهوفين ومطعم الجياع . وبعد ساعة جاءتهم الميرة فحصلت لهم النجاة من الجوع . »

خلف الاب ناجان الاب كروزه ، فأسس المدرسة الداخلية وبنى المساكن المشرفة على باب الدير وابراج الكنيسة الثلاثة . وجوّد نظام المدرسة وجعل التلامذة ثلاث طبقات : داخليين ، ونصف داخليين ، وخارجيين اتوها من المدرسة المجانة باجرة يسيرة مكافأة لاتعابه الطويلة الشاقة اهدت اليه وزارة المعارف الافرنسية وسام المعارف . ثم سيم اسقفاً واسندت اليه القصادة الرسولية في الحبشة . فغادر دمشق في تشرين الاول عام ١٨٨٨ ، مخلفاً اجمل ذكر واعمق اسف . وهو اليوم في مداغسكر الجنوبية قائماً بالاعمال الرسولية متمتعاً بملء العافية . وقد انعمت عليه الحكومة الافرنسية برتبة فارس من جوقة الشرف اعترافاً بفضله واثابة لخدماته الجليلة في سبيل التمدن . واهل مداغسكر يلقبونه « بالذي لا يموت » . اليك ما قاله عنه حضرة الاب المحترم رئيس الجمعية العازرية العام : « ان السيد كروزه بلحيته البيضاء المرسلة الى اسفل صدره ،

وبقامته الطويلة المتناسبة الاعضاء ، ومنطقه الواضح الرزين ، يتصور لاهل تلك البلاد كنسخة من صورة الآب الازلي فيلقبونه لذلك : « بالرجل الذي لا يموت.»

وخلفه في رئاسة دير الشام الاب كليانت الى عام ١٨٩٨ فبنى غرفتين واسعتين للمنام ، لما رأى من تزيد الطلبة الداخلين. وفي عهد رئاسته استقدم الاب رول (Roulx) وهو استاذ واسع العلم متلهب الذكاء حسن التدريس عطأفاً عليه . انصرف بهمته الى توسيع الدروس وترقيتها وقد تناول نظامها البيان والخطابة.

ثم صارت الرئاسة الى الاب برزدوس من عام ١٨٩٨ — ١٩٠١ فعزز الدروس ورقى العلوم البيانية وضبط النظام اكمل ضبط.

وخلفه الاب لوران وكان طلق المحيا بشوشاً ظريف المعاشرة شاباً بهمته ونشاطه على اوهان بدنه وتقدمه في السن . اكب على العمل متجرداً فيه لا يترع الى راحة ولا يقعده خوف من تعب . رأى عدد التلاميذ يزداد على زيادة البناء فهيأ معداته وبنى نصف الطبقة السفلى من الجناح الجديد.

وفي سنة ١٩٠٣ احتفل يوم عيد العنصرة لوضع الحجر الاول من المستشفى الفرنساوي « سان لويس » الذي اسسته الاخت مركوت رئيسة دير الرحمة في دمشق. وتوفي الاب لوران في فرنسة عاشر حزيران سنة ١٩٠٥ فخلفه في الرئاسة الاب رومون . وكان قد مارس التعليم سنين عديدة وحصلت له المهارة في اساليبه فايقظ في المدرسة نهضة جديدة، وبالغ في تنظيم حركاتها وضبط قوانينها وقرب موارد العلم وسهل الى مطالبه . واتم بناء الطابق الاسفل من الجناح الذي بدأ به الاب لوران. وعند تمام سنتين لرئاسته سمي زائراً لاقليم سورية.

وولي الرئاسة بعده الاب لاكيز (Laquieze) من عام ١٩٠٧ — ١٩٠٩ ، فاسس نادي الشباب الكاثوليكي المتمتع اليوم بملء النضارة والنجح. وفي مدة رئاسته صارت الى العازريين ادارة مدرسة القديس جرجس في محلة الميدان ، تولاها الاب عون فساسها احسن سياسة وبلغ بها مرتبة من الرقي استوجب عليها شكر الجميع.

وفي سنة ١٩٠٩ صارت الرئاسة الى الاب البيسون وكان من قبل منقطعاً الى الدرس ، واشتغل مدة بتعليم الصف الرابع ثم بتدريس العلوم . فلم يجل في خاطر احد انه سيبلغ الغاية التي بلغها من جودة الادارة والتدبير. فلما شرع في العمل اذا هو الرجل الجامع بين العلم والادارة ، فاتمّ بناء الجناح الجديد ، وانشأ فيه قاعة الاعياد والحفلات ، ونصب فيها مسرح التمثيل. واعتباراً لفضلة وحصافته وجميع مناقبه القيت اليه مهمة زائر اقليمي ، فظلّ ناهضاً باعبائها الى آخر ايامه . توفاه الله في تشرين الثاني سنة ١٩٢٠.

وخلفه الاب غرو من ١٩١٩ – ١٩٢٧ . هذا الاب الفاضل انصرف مدة ٢٤ سنة الى تعليم الشباب الدمشقي وتهذيبه لا يشفق على طرفه من سهر ، ولا على عقله من كدّ وتعب . وهو الذى نقح نظام الدروس ضامناً تهيّ التلاميذ للبكالورية الافرنسية . فصار فوز التلاميذ بها مطرداً الى اليوم. واسطع دليل على ذلك ان المدرسة قدمت لامتحان البكالورية ٢٨ مرشحاً فلم يخبط منهم سوى ثلاثة مرشحين . وهكذا قل في البكالورية السورية التي أوجدت منذ سنتين ، فان المدرسة قدّمت لامتحانها سبعة مرشحين عام ١٩٢٧ فظفر بالشهادة خمسة منهم وحبط اثنان . ثم قدّمت سبعة عام ١٩٢٨ فرجع السبعة فائزين.

واتمّ الاب غرو مشروع سلفه فاقام في جناح الدار بناية مربعة تحوي غرفة الطبيعيات ومختبر الكيمياء . وبنى في الطبقة العليا قاعة الاجتماع والمحاضرات واكمل الاروقة وزانها بصفوف من اشكال الرسوم الانسانية من تدمرية وحورانية . وكلّل الصرح المدرسي الجميل بدرابزين بديع التخريم . فاصبح صرحاً فخماً حسن الهندسة متقن البناء لطيف الزينة مستوفياً لكل شروط المدرسة العصرية من كثرة القاعات واختلافها وترتيبها الى حسن الزينة وانفساح الساحات وغزارة الماء وصحة الهواء.

ولراهبات المحبة في الشام مدرسة كبيرة في ديرهنّ يثقفن فيها ما يُربي على ٥٠٠ طالبة داخلية وخارجية ، وهي تهيّ الدارسات للشهادتين الابتدائية والعالية يفوز بها كل سنة اكثر المرشحات . ولهنّ ايضاً مدرسة لورد القائمة في حيّ قصّاع ، في قلب بقعة خضراء تسرق بحسنها الطرف يدرّسن فيها الدروس

الابتدائية لاكثر من مئتي طالبة. وهي من هندسة الاب غرو ومشاريعه الخيرية ، ولم تجهل الحكومة السورية قدر خدماته الجليلة فاناطت بصدره وسام الاستحقاق السوري.

وايضاً لهنّ مدرسة ابتدائية مجانة انشأنها منذ عدة سنين ، معروفة بمدرسة القديس انطونيوس ، يتخلّف اليها ١٢٠ ولداً لتلقي مبادئ العربية والافرنسية. اضف الى هذه المؤسسات الخيرية ، مأوى الاولاد اللقطاء. يقوم فيه بنات المحبة باعباء التربية الجسدية والروحية بمحبة لا تستوفى بوصف وحنان ما بعده حنان.

هذا بِرضٌ من عدٍّ من حسنات ابناء وبنات القديس منصور في العاصمة السورية. حسبهم فضلاً انهم يوزعون خبز التعليم والتهذيب على اكثر من ١٥٠٠ ولد ويقومون بتربية عدد كبير من اليتامى واللقطاء.

فاذا رأينا الدمشقيين يستقبلون هذا العيد المئوي بثغور بارقة ووجوه اشرق فيها صباح البشر فلا بدعَ ، لان الخير الذي تدفق عليهم مدة قرن من الرسالة العازرية والمنافع الجليلة التي اثمرتها لهم غيرة راهبات المحبة لجديرة بان تملأ قلوبهم بهجةً وغبطة وتوقظ في صدورهم عواطف الشكر ، وتبسط السنتهم بالمدح والثناء . انه ليس في العطايا اعظم من العلم ، ولا في الخدمة اجلُّ من خدمة الروح ، ولا في المهن اشقّ من مهنة التعليم. وهؤلاء المرسلون والمرسلات دائبون منذ عشرات السنين على نشر انوار العلم في البلدان السورية ، ومتقيدون بخدمة الارواح ، وحابسون انفسهم على التعليم ، وعاكفون على مؤاساة الحزان ومداواة الاعلاء والاهتمام بشؤون الفقراء ، وهم يفتحون قلوبهم قبل منازلهم لايواء الايتام ، واحضانهم قبل ملاجئهم لاحتضان اللقطاء.

كم في الشام اليوم وكم كان فيها في الامس من سيد وسيدة ، اناط العازريون والعازريات باجيادهم قلائد العلم وزانوا عقولهم وقلوبهم بزينة التثقيف والتأديب ، فحقّ لهم ان يفاخروا باولئك العملة الناشطين الذين منذ قرن يعملون لعظم سورية ومجد فرنسة بلا خلل ولا فتور . وان يشيدوا بفضلهم ويقابلوا جميل صنعهم بجميل الثناء.

موت العصافير!

حليم دموس – ادوار البستاني – يوسف غصوب

يذكر قرّاؤنا الكرام اننا اقترحنا ، في عدد مضى (ص ٣٠٨) ، على شعرائنا الافاضل تعريب مقطوعة لفرنسوا كوبه غاية في الرقة واللطف. وقد تواردت علينا قصائد متعددة في الموضوع ، فاخترنا ثلاثًا منها ننشرها في ما يلي ، حسب تاريخ وصولها:

طالما فكّرتُ بالعصفور يَقضي في الشتاء ،
وأنا – والنارُ حولي – أصطلي عند المساء.

هُوَ في الغابةِ مَيتٌ ، لستَ تدري مَدْفنَهْ ،
يَسقطُ الغيثُ عليه في الليالي المحزنَهْ.

خلَت الأعشاشُ من أطيارها ، ليلَ نهارا ،
ولوّتها الريحُ ، والأفقُ قد ازدادَ اغبرارا.

آهِ ما أصعبَ موتَ الطيرِ إبّانَ الشتاء !
في سماء تتراءى كحديدٍ في المساء.

بيدَ أنّا... عندما تأتي الأزاهيرُ اللطيفهْ ،
لا نرى في العشبِ شيئاً مِنْ بقاياها النحيفَهْ ؛

نهبط الغابَ ، وفي أنحائهِ نَلقى السكوتا....
أَتُرى تختبئُ الأطيارُ فيهِ لتموتا ؟!....

حليم دموس

طالما هيّج بي صمتُ المساء ، جانبَ الموقد مشبوبَ الصِّلاء ،
ذكرَ عصفور شريد ينطفي بظلام الغاب ، منسيًّا وناني .
تلكم الأعشاشُ أقوَت ، وارتدت في الشتا المحزون ، جلباب العفاء ،
تتهادى تحت جوٍّ كدرٍ نسفته الريح في وجه السماء ،
آه ! ما اقسى ، وما اوحش مو ت العصافير بأيام الشتاء !!
فاذا ما مزجت روح الربيـ ع شذا الورد بانفاس الفضاء ،
انت لا تلمح ، في العشب ، هيا كلها منثورةً رهن الفناء .
هل عصافير الحقول اختبأت لتلاقي الموت في ظلّ الخفاء ؟

ادوار البستاني

في اكتئاب الشتاء عند المساء ، قرب نار كبسمة من ضياء ،
كم تصوّرت من عصافير تلقى غصص الموت في ليالي الشتاء !
اوحش الغابُ ، غير ما وكنات فارغات ، تحت اغبرار السماء ؛
خافقات ، اذا الرياح توالت ، كقلوب تعلّقت في الفضاء .
يا لهول الشتاء يفترس الطـ ير ، ويودي بزهوها والغناء !
اين تقضي ؟ فانّنا يوم تكسى ارضنا من مطارف خضراء ،
لا نرى من هياكل الطير شيئاً بين زهر الخمائل الغنّاء .
اترى تختبي العصافير حتى تلتقي الموت في سكون الفناء .

يوسف غصوب

مجلة المجلات

بطريركية الرومان وعيد الفصح — الانكليز في مصر والسودان

بقلم الاب توتل اليسوعي

بطريركية الرومان وعيد الفصح

عن مجلة الشرق المسيحي (تموز - ايلول سنة ١٩٢٩ ، ص ٣٦٤)

ان قضية تعيين عيد الفصح السنوي ، على قلة اهميتها بالنسبة الى عقائد الايمان ، لم تلبث ان القت الاضطراب الشديد في كنيسة الرومان الارثوذكسية في اوائل هذا العام . فالتأم في ٢١ كانون الثاني مجمع الرومان لاعادة النظر في تعيين اليوم الذي يعيد فيه المسيحيون في رومانية قيامة السيد المسيح له المجد. وبينا كانت الكنائس الارثوذكسية التي استبدلت تقويمها السنوي التاريخي بالحساب الجديد لا تزال على ابقاء القديم على قدمه فيما يخص عيد الفصح ، كان مجمع الرومان قد قرر ، منذ شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٨ ، ان عيد الفصح لسنة ١٩٢٩ يقع في ٣١ مارس ، لا في ٥ ايار . ذلك لانه رأى ان وقوع الفصح في ٥ ايار يعين فصح المسيحيين في شهر نيسان القمري لا في شهر اذار القمري ، مما يناقض روح التقاليد والتقارير الموروثة عن المجامع المقدسة.

ولكن لم ترق نظرات مجمع الرومان باعين بعضهم وخاصة في بسارابية ، حيث ظل تقرير اصلاح الحساب اليوناني واستبداله بالحساب المصحح حبراً على ورق. فطلب السيد غوريه (Gourié) متروبوليت كيتشينيف (Kitchinev) ان يعين عيد الفصح في ٥ ايار . واستحسن طلبه رجال الاكليروس وبعض العلمانيين في منطقته . اما العلماء فانحازوا الى نظرية المجمع وقراراته ، ودخلت

الصحافة بين الفريقين فانكر الصحافيون على الاكليروس تصرفهم المؤدّي ، في زعمهم ، الى خراب الارثوذكسية. فقامت القيامة .واضطربت الخواطر حتى خشي المجمع العواقب وقرَّر انه لا حرج في تعييد الفصح في ٥ ايار على من اراد من المؤمنين ان يعيّده في ٥ ايار.

فكانت تلك اول خطوة الى الوراء ، ثم عقبها خطوة ثانية لما عُين نهائياً عيد الفصح في ٥ ايار . اما الحكومة فوقفت على المحايدة وتركت الكنيسة الارثوذكسية وشأنها في حلّ المشكل.

ولم تكن البطريركية لتخرج من المعمعة بما يليق بها من العزّ ونفوذ الكلمة ، فحمل بعضهم عليها واتهمها بالفوضى . وقال انها يتيمة من اساقفة حقيقيين فلا قوام لسلطة فيها ، بل هي اشبه بكنيسة سوفيتية تشربت الروح البروتستانية وقد قطع رأسها وتنازلت عن سلطتها الى رجال الحكومة والسياسة فجمد الدم في عروقها ولم يبقَ لها الّا مظاهر طقوس تشخيصية خالية من الروح المسيحية الضرورية للامة كي تنهض نهضتها الادبية.

وهذا التحامل العنيف يسخط عليه كل مسيحي ويأباه . وليس فيه دواء لداء ، ولا ما يعود بالكرامة على الكنيسة ورجالها . وربما افرط هؤلاء بمراعاة خواطر الناس في امور وتقريرات ليس للعامة فيها شأن ، وليست المجادلات الدينية تتصدى لها الجرائد الثرثارة مما يزيد الاكليروس عزاً وهيبة.

الانكليز في مصر والسودان

عن اي نتيجة وضاحة سوف تسفر المفاوضات في شأن المعاهدة البريطانية المصرية الحديثة؟ لا يمكن البتّ بالامر حكماً بنصّ بنود المعاهدة ، كما روتها الجرائد ، لما في الفاظها من المكنونات الممكن تأويلها في سبيل مصلحة المصريين او عليهم . على انه من البديهي ان انكلترة تحتفظ بحقوقها على السودان ، وقدمها لا تزال راسخة في ارض مصر . واذ نحن نقلب المجلات لنختار منها ما يصلح لمجلتنا في هذا الشهر ، لفت نظرنا مقال مسهب للكاتب الالماني فرنستينكي وموضوعه «مصر والسودان» طبعته جامعة كونيسبرغ في نشرتها الرابعة من هذا العام . عرض فيه صاحبه لذكر احوال مصر والسودان الجغرافية والتاريخية على العموم ولعلاقات القطرين الاقتصادية ، ثم تطرّق الى تاريخ دخول الانكليز بلاد السودان وتوطيد اركان قوتهم فيها فقال : (ص : ٤٥)

ما من سلاح تسلحت به انكلترة على مصر في المسألة السودانية اقوى من

السلاح الذي اتخذته من يد المصري الوطني قاتل السردار ، حاكم السودان العام ، في السنة ١٩٢١ . فانها تذرعت به لتعلن سيادتها على السودان من غير ان يبقى لمصر نصيب فيه .

كان محمد علي ونوابه قد افرطوا بتجارة الرقيق حتى كادت بلاد السودان تخلو من سكانها . مما الجأ الخديوي سعيد باشا في السنة ١٨٥٠ الى ارسال حاكم اوربي عليها ، وهو صموئيل باكر الانكليزي . وليس من شأننا ان نحقق هل تقدم باكر الى الوظيفة من تلقاء نفسه او عن اتفاق مع وزارة انكلترة الخارجية . على انه حل البلاد واخذ يضع العوائق دون التجارة بالعبيد ويسعى في سبيل العمران والاقتصاد . ثم خلفه غوردون ، وكان اشد بأساً منه ففاقه نجاحاً في عمله من السنة ١٨٧٤ الى ١٨٧٦ ، شمالي البحيرات الكبرى في الاقليم الاستوائي وعاصمته لادو . واشترك باكر وغوردون في وضع نظام ذلك الاقليم .

ثم ثارت بلاد السودان تحت زعامة المهدي ، واغار عسكره على الجيش المصري ، وهو تحت قيادة ضباط انكليز ، وكسره واضطره الى التقهقر وقتل غوردون في كانون الثاني ١٨٨٥ . وكانت انكلترة مشغولة بامور عاقتها عن الخوض في الحرب السودانية . فصبرت وتحفزت مستنجة الفرص . وكان اولياء الامر في مصر يلحون على الانكليز بالخروج من وادي النيل الحاحاً اعظم من ذي قبل . والدواعي الى ذلك هي ان مصر دخلت في حياة سلم وأمن ، وانها اخذت تنمو وتزدهر ، وتدفع ما عليها من الديون تقسيطاً من غير مماطلة ولا مقاومة . فلا حاجة من ثمَّ الى ملازمة الاشراف على احوالها .

ولكن انكلترة لا تستطيع ان تجلو عن مصر من غير ان تضع موضع المخاطر سيادتها على ترعة السويس . ولا بد لها من البقاء في البلاد ، حفظاً للصلة بين اطراف الامبراطورية البريطانية الحيوية . فكانت تلتمس لها حجة للبقاء في مصر من غير ما تجاهر باختراق حرمة حقوق الامم ، فجاءت الحجة من السودان : هناك حدود مضطربة تحتاج الى التأمين ، وهناك بلاد يجب ان يعود امرها الى مصر ، وهي مفتاح المياه ومصدر الحياة الزراعية والاقتصادية فيها .

وفيما كانوا يتأهبون للحملة على السودان حدث حادثان دفعا انكلترة الى

التدخل في الامر بعزم وشدة كان امين باشا الالماني الاصل قد حفظ نفوذه في الاقليم الاستوائي السوداني بالرغم من الثورة. وكان في وظيفته الرسمية سنة ١٨٨٦، لمّا انسحبت مصر من السودان، فكان لا بد من ان يستنتج من الحالة ما يعود على مصالحه بالنجاح، فخافوا في لندن ان يسلم اقليمه لالمانية، وهذه الدولة كانت قد بسطت سلطتها على البلاد في داخل الزنجبار وطمحت الى التوغل في قلب افريقية. فسارت حملة ستانلي الشهيرة المعروفة بحملة النجاة وغايتها ان تنجي امين باشا من الحصار. ولكن في الحقيقة سارت بامر وزارة بريطانية الخارجية لتمنع عن بلاد النيل الاعلى ذلك المزاحم العتيد، فكسرت «قيوده» بالرغم منه، واخرجته من اقليمه.

ثم قوّت حملتها وسيرتها على عبدالله خليفة المهدي، وقطعت رأس النفوذ الالماني. وانتهت القضية بمعاهدة هلجولاند سنة ١٨٩٠، وقد أعطيت فيها انكلترة البلاد الساحلية.

اما الحادث الثاني فكان اندحار الايطاليين وانسحاقهم في ادو امام الجيش الحبشي، مماّ ادّى الى اختلال سياسي عظيم الشأن في اعالي النيل. على ان معاهدة كسلا في سنة ١٨٩٧ ضمنت لانكلترة البلاد اللاحقة بهذه المدينة، وابعدت الايطاليين عن عطبرة وعن بلاد النيل.

وانتهت حملت كيتشنر على المهدي سنة ١٨٩٨ بانقراض دولة المهدي في قراري، وبموت عبدالله سنة بعد ذلك.

وبعد ان فتح كيتشنر مدينة الخرطوم، عجل سيره الى اعالي النيل الابيض لكي يلجئ الى التقهقر الماجور مارشان الفرنساوي الذي كان قد رفع علم دولته على فاشودا. فكان سقوط فاشودا اعلاناً للاجتهاد في التوغل بفتح افريقية، لان غاية انكلترة كانت انشاء مملكة استعمارية في شرقي افريقية، على خط ممتد من الشمال الى الجنوب، تكون في جسم السكة الحديدية من رأس الرجاء الصالح الى القاهرة كسلسلة الفقرات في جسم الانسان...

وفي السنة ١٨٩٩ بعد ان عادت الجنود المصرية الى السودان واحتلّتها تحت قيادة الانكليز، وبفضل الذهب الانكليزي، عقدت المعاهدة الانكليزية المصرية

التي جعلت زمام الامر في يد انكلترة ومصر ، وسلطتهما معاً على البلاد الواقعة بين وادي حلفا والبلاد الواقعة في الدرجة الخامسة شمالي الخط الاستوائي

ولم تمض ايام طويلة على كيتشنر وعلى خلفه واينجات حتى توطدت اركان السلم في السودان ، ورفعا فيها لواء النجاح الاقتصادي . وكان كيتشنر القائد الكبير عارفاً تماماً بحالة الشعوب السودانية النفسية ، فعاملها بفطنة ودراية ، ولم يترك مجالاً لاعمال التبشير فيها بين المسلمين . وسعى كثيراً في انماء الزراعة وفي مساعدة الحركة التجارية . على ان النفوذ الانكليزي ما كان ليمتد ظله على السودان ، ولم تكن حقوق الانكليز على مصر راسخة على اساس وطيد . ففطنوا الى ضرورة جعل قضية السودان مستقلة عن قضية مصر ، حتى اذا اضطرت انكلترة يوماً ما الى التخلي عن مصر ، بقيت لها بلاد السودان كجزء من مستعمراتها . ولهذا السبب بنوا الخط الحديدي بين سواكين وبور سودان ، وجعلوا بور سودان مرفأ عصرياً كاملاً ، ومدوا طريقاً الى كاسلا ففتحوا البلاد السودانية الشرقية ، وخاصة الخط الحديدي الاكبر من وادي حلفا الى الجنوب حتى اتصاله بخط الرجاء الصالح الصاعد من جنوبي افريقية . ولم يصلوا هذا بالفرع الممدود بين اصوان ومصر والاسكندرية لئلا تتوجه محصولات الارض الى المرافئ الغير الانكليزية . فحالوا من ثم دون نجاح الحركة الاقتصادية المصرية نجاحاً تاماً ، ولا يتسنى للاجانب الغير المرغوب فيهم ان يزوروا هذه البلاد . وسوف يؤجل ربط طرفي سلسلة الخط الحديدي من القاهرة الى الرأس ما دامت انكلترة متربعة في مصر .

اما انماء بلاد السودان ونجاحها فهي مسألة حلها يأتي حتماً مع الزمان . ان حالة مصر الاقتصادية والسياسية راكزة على محصولات القطن ، والقطن فيها منوط امره بقضية النيل . وكلا الامرين واقعان في حكم السودان ، والسودان يتصرف بهما طبقاً لارادة الدولة صاحبة النفوذ ، وهذه الحالة يعبر عنها بكلمة واحدة اصبحت عنواناً للحياة الاقتصادية في وادي النيل ، اعني بها « القطن ».

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الحادي عشر

عرس غريب (تابع)

اما بدور فكانت ترى غانماً بعد ان تجرّع مرارة الأسى فتألم ، واجبر على معاشرة الغرباء فتحنّك ، وعاش في بلاط عكّا فاعتاد التبصر . فغدا وقد استبدل بصلف ابناء المشايخ تواضع الحكماء ، وبجرأة الاغرار المندفعة تؤدة ذوي الاختبار ، وبصراحة الشباب الفجّة مرونة ارباب السياسة المحنكين . فكانت تعجب به كما كان يحترمها ، وكانت تحترمه كما كان يعجب بها .

واما فرحات فكان يحار في تجلد بدور وغانم حتى لا يفهم تلك القوة الخفيّة ، لانه لم يكن يشعر بما يشابهها في نفسه المضطربة لدى الرزايا ، وفي قلبه الخفّاق لدى الخطوب ، على الرغم من تقدّمه بالعمر وكثرة اختباره وتنوع تجاريبه . بل كان كلّه عاطفة لا يتمالك ذرف الدموع اذا خلا بنفسه ، فيتذكر تارة الشيخ قعدان يوصيه بالسهر على غانم ، وطوراً الامير جهجاه يتردّد صدى اوامره في آذان الجنود ، وحيناً الست سعدى تتململ ببنيتها النحيلة على الفراش الوثير . فيبكي الى ان تتقرّح جفونه ، وتحمرّ عيناه . حتى اذا رأى غانماً قادماً ، اظهر من الضعف قوة وتجلّد ، فيحيّيه هذا بوجه طلق ونبرة قوية على رغم الاسى . فيكبر فرحات صبر مولاه ورباطة جأشه ويودّ لو تخلّص من براثن

الجزّار ، فيتولّى رئاسة الحزب في دير القمر ، وقيادة رجاله. وما احوجهم الى جبار مثله !

وكثيرًا ما كان يفاتح غانمًا بهذا الشأن . فيسهل له سبل الرجوع ، ويصف امامه حال رجال الحزب وما هم عليه من التضعضع والتخاذل ، وحاجة الامير بشير اليه في تلك الايام العصيبة . فيحني غانم رأسه ويقول :

– لا يمكنني ترك عكا في الوقت الحاضر ، والجزّار لم يستلم بعد شيئًا يُذكر من اموال الميري . فوجودي هنا لازم لخدمة البلاد .

– ولكنك تخدم البلاد بوجودك فيها اكثر من خدمتك اياها باقامتك في بلاط الجزّار !

– هذا رأيك ! وعلى فرض انه صحيح ، فهل ترى الجزّار يسمح لي بالرجوع ، وهو لم ينل من الامير سوى المواعيد ؟

وعند الوصول الى هذه النقطة كان فرحات يحني رأسه ، ويتابع في خاطره فكرةً لم يكن يجسر على ابدائها . وهي العمل على الرجوع خفيةً عن الجزّار . . .

وكانت بدور تحضر احيانًا هذه المحادثات ، فتتابع في عيني فرحات نهاية الفكرة ، وتودّ لو يتابعها غانم ايضًا ، فيهرب الثلاثة الى الوطن العزيز ، حيث يتوفّر لهم قليل من الراحة ، بين الاهل والاصدقاء . . .

* * *

مرّ اربعون يومًا ، ومنزل غانم لا يكاد يخلو من الزائرين ؛ وكلهم يظهرون عواطفهم الخالصة ، ويعرضون مساعداتهم وخدماتهم . حتى كادوا ، بلطفهم ومؤانساتهم ، يمحون آثار الحزن ، ويخففون لوعة الغربة .

وكان الاب توما ومصطفى آغا لا يتخلفان يومًا عن زيارة صديقهما العزيز . حتى اصبحت تلك الزيارات سبب علاقة بينهما فاتفقا في كثير من الافكار والميول ، على اختلافهما في المعتقد ، اذ رأى الاب توما في مصطفى آغا رزانة يحليها الظرف وتعقّلًا يؤيده الاختبار فاعتبره ، وخبر الثاني في الاول فضيلةً تزينها المحبة ، وتقوى تقويها التضحية ، فاحترمه . وكانا كثيرًا ما يتبادلان

الآراء في مستقبل بدور وغانم ، وغايتهما اسعاد الفتى والفتاة ، وكثيراً ما كانا يتفقان.

وبينا هما مع غانم مساء احد الاعياد ، وقد خلا المنزل من الزوار ، وخرجت بدور مع فرحات لزيارة الكنيسة ، التفت الاب توما الى الشاب وقال:

— ها قد مرَّ زمنٌ على تلك المصائب المؤلمة ، يا بنيَّ . فرحم الله من رحل عنا الى ديار الخلود ، وعزاكم وايانا عن فقدهم. وقد تكلمت طويلاً مع مصطفى آغا بشأنك وشأن بدور ، فرأينا ان حالتكما الحاضرة غير طبيعية: انت شابٌ وهي فتاة . وكلاكما غريبان في بلاد بعيدة ، تعيشان في منزل واحد . فاصبح من الواجب ان تتحدا برباط الزواج المقدس...

فتنهد غانم مقاطعاً ، وقال حزيناً :

— لا تزال العبرات تجول في العيون ، يا بونا توما ! ولم ننسَ بعد موتانا الاعزاء !

- لا انكر ذلك يا بُنيَّ . ولكني لا ازال اذكر كلمةً لاحد حكماء بلادنا الفرنجية معناها ان افضل ما نقدّمه لموتانا من واجبات الاحترام هو ان نصنع ما كانوا يأمروننا به لو ظلّوا في قيد الحياة . فلو ظلَّ المرحوم جدك قعدان ، والمرحوم عمك المير جهجاه ، والمرحومة سعدى في قيد الحياة ، فما كانوا يأمرونك به ، وانت مع بدور في هذه الحالة ؟ أليس بأن تعجل بعقد القران ، فتعيش وبدور نفساً واحدة في جسدين ، تحملان معاً ثقل الرزايا فتجدانها خفيفة ، وتتشاطران متاعب الحياة فتلفيانها قليلة ؟

وبعد دقيقة سكوت راقب في خلالها وقع كلامه على غانم ، تابع :

— هذا ما رأيته موافقاً مع مصطفى آغا

فأمن الآغا على كلامه واردف الكاهن.

— وعليه ، اذا لم يكن لديك مانع مهمّ لم ننتبه له ، ارى من الموافق ان نقيم العرس ، بكل ما يمكن من البساطة ، نهار الاحد القادم . أليس كذلك ؟

فرفع غانم رأسه الثقيل بالهموم ، واجال نظراً ساكناً ، ثم اشار بيديه

اشارة الاستسلام ، وقال :

– كما تريد يا بونا توما ! ولكن ارجو منك ان تهتمّ انت بمخاطبة بدور في هذا الشأن.

وكان موعد رجوعها مع فرحات قد حان ، فخرج الثلاثة الى صحن الدار حيث رأوها قادمة ، فاشار اليها الاب توما بمواجهته ، وتحوّل مصطفى آغا وغانم يشاهدان اسواق المدينة من احدى النوافذ.

وما هي دقائق حتى دعاهما فرحات ، فدخلا الردهة ودخل معهما . فقال الكاهن :

– لقد اتفقنا على ان تزف ابنتنا بدور الى ابننا غانم نهار الأحد القادم ، في البيت ، بحضور مصطفى آغا والسيدة امرأته ، ان لم يكن مانع في ذلك.

ثم التفت الى الآغا فهزّ هذا رأسه علامة النفي . فتابع :

– وانت يا فرحات تقوم مقام الاشبين.

***

في صحن الدار ، على طاولة بسيطة ، نصب فرحات شمعتين عليّتين عقد عليهما باقتين من الزهور بشريطة لم ترضها بدور الّا سوداء . ثم سار يدعو الاب توما ، فجاء مع خادم الكنيسة . فاستقبله العروسان ومصطفى آغا وامرأته.

ولم يلبث ان باشر حفلة الاكليل بصوت منخفض ، فجمع بين يدي العروسين ، تالياً الصلاة المعتادة ، متبعا بالنصائح والوصايا الصالحة . ثم هنأهما وتمنى لهما الحياة الطويلة يصرفانها بالسعادة والهناء.

وبعد ذلك تقدم مصطفى آغا فاعاد التمنيات ذاتها بلسانه ولسان امرأته ، ودعا الجميع الى بيته . فاعتذر غانم اولا ، ولكن الاب توما قال :

– لا بأس في ذلك !

ثم شكر للآغا عاطفته اللطيفة ، وسار فتبعه الباقون.

كانت الوليمة غاية في البساطة وحسن الذوق . وقد خرق الآغا عادة الحرم

وسمح لامرأته بالجلوس ، فجلست الى جنب العروس تؤاكلها ، وتؤانسها بلطفها المعهود.

***

قضى غانم السنة الاولى من زواجه في طمأنينة وغبطة يحسده عليهما كل من كان في حالته بعيداً عن بلاده ، مجرّداً من اهله ، غريباً بين قوم لا يفهمهم ولا يفهمونه . على انه لم يكن ليبالي بسوى عائلته الجديدة ، منصرفاً جهده عن التدخلات السياسية ، مُعرضاً ما استطاع عن ديوان الجزّار ، جاهلاً جميع الاخبار الّا ما كان يأتيه به فرحات مرةً كل خمسة عشر يوماً ، من حوادث الجبل ، وحالة الامير بشير وموقفه من الاحزاب اللبنانية عامّة ومن الجزّار خاصّة . وكلّها كانت اخباراً سارّة بالاجمال تبعث في غانم الأمل بالرجوع لمشاهدة اميره ، والانخراط في جيشه.

وكان ممّا اخبره به فرحات ، في اوائل سنة ١٧٩٧ ، ان الامير بشير برّ بقسمه في ما خصّ الانتقام للأمير جهجاه من النكدية . فانه اتفق مع المشايخ الجنبلاطية والعمادية على التخلّص من آل ابي نكد . وما لبث ان استدعى الى دير القمر اولاد الشيخ كليب الخمسة وهم بشير ، وواكد ، وسيد احمد ، وقاسم ، ومراد . فدخلوا مجلسه وفيه جمهور من الجنبلاطيين والعماديين ، فاجلس كل شيخ نكدي بين اثنين من اعوانه . وبدأ يوبّخهم على سوء صنيعهم حتى اذا احتدم غيظه ، قام غاضباً وخرج من القاعة مغلقاً الباب . فما كان من مشايخه الّا ان انقضوا كل واحد على جاره مغمداً خنجره في بطنه . ثم جرّوهم فرموهم في بئر هناك دُعيت من ثمّ « بير النكدية» . ولكن الامير لم يكتفِ بتلك المجزرة ، فارسل بعض رجاله الى اعبيه ليقبضوا فيها على اولاد الشيخ بشير ابي نكد ، وهم اربعة : علي ، وجهجاه ، وسعد الدين ، وكليب . ففرّوا منها الى وادي الناعمة واختبأوا هناك مدة ، حتى اكتشف مقرّهم اعوان الامير فساقوهم اليه . وبعد ان عذّبهم زمناً في سجنه ، ارسل اليهم المشايخ العمادية فقتلوهم جميعاً . وكان البعض من ابنائهم الصغار هربوا الى دمشق برفقة الشيخ سلمان ، فامر الامير بضبط املاكهم كلّها ، فأخذ له منها جزءاً واعطى الباقي لمن

ساعده على قتلهم من المشايخ.

لم يكن هذا الخبر ليسر غانماً لما كان في خُلقه من الرأفة الطبيعية والترفع عن القسوة والشراسة. ولكنه لم يكن ليسوءه كثيراً لما كان في قلبه من حرقة على الامير جهجاه، ولما كان في عقليته من تأثير عادات زمنه بوجوب المعاقبة الصارمة وقمع الشرّ بالشرّ، حتى انه كان على الرغم من اشمئزازه الظاهر لتلك الفظائع، يشعر بما لم يكن يجسر على اظهاره من الارتياح للأخذ بثأر الامير جهجاه، ولتطهير البلاد من بعض الخونة المفسدين.

امّا علاقات الامير بالجزّار فكانت على غاية ما يُرام. اذ كان الامير لا يترك فرصةً الّا اغتنمها لاظهار تعلقه بولي عكا، وامانته في تنفيذ ارادته، وخصوصاً لاظهار استعداده لدفع اموال «الميري» المتراكمة. الّا ان هذا الاستعداد الطيّب لم يكن يتجاوز محيط الكلام الّا نادراً، حتى كان الجزّار كثيراً ما يغتاظ من تلك المعاملة، فيستدعي غانماً ويخاطبه بلهجة تنمّ عن استيائه من تلك الحالة ورغبته في تقصير زمن المماطلة والتسويف. فيجتهد غانم في تخفيف غضبه تارة بتصوير حالة الجبل في اشنع مظاهرها من حيث المحل او تشويش الامن، وطوراً باغداق المواعيد الخلّابة المتعلّق وفاؤها بانتهاء زمن المواسم المختلفة. ثمّ يكتب الى الامير بشير ملحّاً عليه بارسال شيء من المال، ويرجع الى بيته مسروراً من جهاده في سبيل اميره، فيتناسى كل شيء. اذ يدخل حجرته فيحيي امرأته، ويداعب صغيريه. وكانا توأمين ذكراً وانثى منّ الله بهما على تلك العائلة الغريبة، فخلّصاها من الوحشة والضجر اذ اصبحا عالماً كاملاً في نظر والديهما اللذين كانا يصرفان الساعات، مع فرحات او مصطفى آغا او امرأته، بالتأمل في قسمات وجه قعدان — وهو اسم الطفل — او بتعديد محاسن سعدى — وهو اسم الطفلة. وكثيراً ما كان ينتصر الاب للطفلة فيفضلها على اخيها، فتغتاظ بدور وتبدأ بسرد محاسن قعدان. ويمضي غانم في تفضيله مؤيداً رأيه بشهادة امرأة مصطفى آغا، فتقابله بدور مستعينة برأي فرحات. حتى اذا احتدم الجدال التجأا الى الحكم يفصل بينهما، ولم يكن سوى مصطفى آغا، فقدّما اليه الصغيرين وادلى كل فريق بحججه. فكان الآغا

يقهقه عالياً ويحكم بالمساواة . ثم يقبّل الطفلين الصغيرين ، ويقهقه ثانيةً ضاحكاً من الطفلين الكبيرين .

***

على مثل هذه الحال كان يقضي غانم قسماً وافراً من ايامه ، حتى اذا كان المساء ونام الصغيران ، جلس الى مصطفى آغا يلاعبه بالنرد ، او يسأله عن آخر اخبار الديوان ، بينا كانت بدور تحادث امرأة الآغا منصرفة في الوقت نفسه الى فتل مغزلها ، او ترقيع بعض الثياب . اما ليلة وصول فرحات فكان يجلس الجميع صامتين مستعدّين لسماع ما جمعه من الاخبار اللبنانية ، وما سمعه من الاشاعات عن ابنَي الامير يوسف ورجال الحزب المعاكس ، وما صادفه في الجبال والاودية التي تفصل عكا عن دير القمر . فيروي فرحات امامهم ما توافق روايته من الاحاديث المختلفة ، ويحتفظ بالاخبار المهمة يسرّها الى غانم على حين خلوة منه .

وفي ليلة من خريف سنة ١٧٩٧ ،مكفهرة الافق ، ثقيلة الهواء ، هبّت فيها عاصفة شديدة جيّشت الغيوم السوداء من البحر الى الجبال المقابلة ، ولم تلبث ان لفحتها الريح الباردة فتساقطت برداً كبيراً تحوّل الى مطر مدرار دام نحو الساعة ، فجرت السيول جارفةً كل آثار الصيف المتجمعة في الازقّة والاسواق ؛ وفزع الناس الى بيوتهم يتقون الفيضان متسترين من تلك البروق المتكسرة الخاطفة الابصار التي كانت تعقبها الرعود المتتالية القاصفة بسرعة غريبة تدلّ على اشتداد العاصفة وعلى قرب موقع الصواعق ؛ في تلك الليلة التي برد فيها الهواء فجأة بعد حرّ الصيف ، خاف مصطفى آغا ان يهيج العصب في مفاصله ، فأوى باكراً الى فراشه ، تاركاً غانماً وامرأته نحو الساعة الثانية بعد الغروب . اما هذان فسهرا الى الثالثة . ثم قامت بدور ، ترضع ولديها فركعت الى جنب السرير المزدوج . وقام غانم ليرى هل سكنت العاصفة . فما كاد يفتح النافذة المطلّة على البحر حتى نشب بارق ساطع تلته قصفة هائلة بدأت مفردة ثم جعلت تتقطّع وتضعف شيئاً فشيئاً الى ان تلاشى صداها في طيّات الغمام . فانتفض الطفلان لشدّة الصوت ، ورسمت بدور على وجهها اشارة الصليب ، وتمتمت :

— الله يساعد المسافرين في هذه الليلة ! يا ربّي خلّص فرحات !

فقال غانم :

— ليس الليلة موعد وصوله ، فلا تخافي ! وفضلًا عن ذلك فان العاصفة اشدّ وقعها في البحر ، اما في البرّ فلا تكاد تتجاوز حدود المدينة.

ثم اقفل النافذة ، واتجه الى الباب فاحكم قفله . وانتظر ريثما انتهت بدور من ارضاع الطفلين ، فاطفأ النور وتحوّل الى فراشه.

وما كاد يلمّ النوم بعينيه حتى قرع الباب قرعاً شديداً متتالياً. فاذا ببدور تفيق صائحة.

— فرحات ! فرحات !

وتسرع الى المسرجة فتنيرها ، بينا كان غانم يفتح الباب ويستقبل مَن ذكرته ، وعلى وجهه علائم الاستغراب ، لتلك السرعة ، وفي ذهنه افكار سوداء تنذر بوقوع خطر مفاجئ.

وما كادت انوار المسرجة تنعكس على وجه فرحات حتى ذُعرت بدور لشحوبه ، واوجس غانم خوفاً فصوّب اليه نظرًا مستفهماً . فانطرح فرحات على الارض بعد ان اقفل الباب ، وقال :

— لا تخافا ! ان بعد المشقّة ، وشدّة العاصفة ، وسرعة السير اتعبتني ، وليس في ما احمله شيء من الشرّ.

ثم فكّ ازرار صدرته وناول غانماً تحريرًا ، وانصرف ناحية بدور تضرم له النار وتعطيه ثياباً كي يستبدلها بثيابه المبلّلة.

اما غانم ففك الخاتم الاميري عن الكتاب وقرأ :

« حضرة عزيزنا الشيخ غانم بو غانم حفظك الله.

« معلومنا انك وارث لكل صفات الرجولية والاخلاص للحزب التي امتاز بها اهلك الكرام لاسيما شيخنا ومدبّرنا الكبير المرحوم الشيخ قعدان ، وعزيزنا الفقيد الغالي المرحوم الامير جهجاه . فلهذا السبب نخبرك ان الحزب بحاجة الى فطنتك ودرايتك في هذا الوقت . وذلك كون اعدائنا المعروفين ابني الامير يوسف وكاخيتهم جرجس باز وبعض رجالهم بعد ان هربوا ملتجئين الى دمشق

حيث انعم عليهم الوالي عبدالله باشا واقامهم في حماه وعيّن لهم الميرة سمعنا انه جرى مخابرات بينهم وبين الجزّار وانه كتب لهم ان يحضروا اليه الى عكا آمنين . وفي علمك كفاية عمّا يمكن ان تكون نتيجة هذه المخابرات . فالمطلوب منك يا عزيزنا ان تختبر الحالة في عكّا وتعرف نوايا الجزّار وتعده عن لساننا اذا لزم الأمر بالمواعيد الكثيرة وواصلك صحبة فرحات حمل من المال امكننا جمعه في هذه المدّة فسلّمه ايّاه وقل له يأتي الباقي في اقرب وقت . دبّر الامور كما ترى الموافق وجاوبنا حالاً مع الرسول ذاته وفي فهمك كفاية من وجوب كتم السرّ ووفقك الله .

عن دير القمر في ١٢ ايلول سنة ١٧٩٧

الامير بشير قاسم عمر

الشهابي »

ولم يطوِ الكتاب حتى رجع فرحات فبلّغه سلام كاتب الكتاب ، وهو معلّمه القديم نقولا الترك . ثم جلس يتناول عشاءه ، وكانت بدور اسرعت باعداده من حواضر البيت ، ويروي لهم ، بين اللقمة واللقمة ، كل ما سمعه من الاخبار والاشاعات في طريقه . وكان غانم قد اعطى التحرير الى بدور فقرأته بسرعة كي لا يفوتها شيء من اخبار فرحات ، وردّته خائفة من ان يكون ما فيه صحيحاً ، ومن تغيّر مفاجىء قد يكون طرأ على عقل الجزّار .

* * *

ما ارتفعت شمس اليوم التالي حتى كان غانم يستأذن على الجزّار ووراءه فرحات يحمل كيسين ثقيلين . وكان المولى منفرداً في كشكه الخاص يدخّن ماسورته ، وحاييم اليهودي ، امين صندوقه ، يسرد عليه مبالغ النفقات وما يقابلها من الواردات . والجزّار يقول له :

(لها بقية)

مطبوعات شرقية جديدة

Levy (Reuben): A Baghdad Chronicle. *in*-8°, 279 *pp. Cambridge, University Press. Prix*: 15/-

تاريخ بغداد

شاء مؤلف هذا الكتاب، وهو استاذ اللغة الفارسية في جامعة كمبريدج، ان يدرس المصادر الاصلية لتأليف تاريخ مدني واجتماعي لمدينة بغداد منذ تأسيسها على يد الخليفة المنصور، حتى خرابها على يد المغول سنة ١٢٥٨. فنجح كل النجاح في عمله هذا. فرأينا ان اقامة الخليفة في تلك المدينة لم تكن لخيرها، بل بالعكس فان بغداد لم تربح سوى ثورات متتابعة في البلاط الملكي، وحصارات متعدّدة، وحروب اهلية. فضلًا عن الحروب الدينية التي كثيرًا ما كانت تتحوّل الى معارك منظمة ليس فقط بين السنيين والشيعيين، بل بين المذاهب السنية نفسها، وكان اشدّ هذه المذاهب تعصبًا وابعدها عن التساهل المذهب الحنبلي الذي كان شديد الوطأة في بغداد. حتى انه لما توفي الطبري المؤرخ المشهور خاف مريدوه على رفاته من انتقام الحنابلة، فاجبروا على دفنه ليلًا. كل مظاهر هذه الحياة المضطربة، وغيرها من الحوادث الداخلية والخارجية كفيضانات دجلة، وتشييد القصور، وتأسيس المدارس، كل ذلك يسرده المؤلف، سردَ رجل واثق بما يعرفه، وعارف بالطريقة المثلى لتبيانه ه. ل.

R. C. Thompson *and* **R. W. Hutchinson**: A Century of Exploration at Niniveh. 146 *pp.* 8°, 6 *planches*, 9 *plans*. 1929. *London, Luzac. Prix*: 7/6

مائة سنة في التنقيب عن آثار نينوى

هو ملخص حسن عن التنقيبات والحفريات التي أجريت في نينوى (شمالي الموصل) وهي احدى عواصم الشرق اللامعة بمدنيتها في الالف الاول قبل المسيح. وقد ذكر المؤلفان، وهما من علماء الاشوريات، ولاسيما الاول، ابتداء اعمال البحث

في ما بين النهرين منذ القرن الثامن عشر ساردين كيف حصلت اولى التنقيبات العلمية على يد بوتا (*Botta*) قنصل فرنسة ، وقد كانت هذه الاعمال مع تنقيبات لايارد (*Layard*) آساساً لعلم الاشوريات. اما اسلوب الكتاب فغاية في الخفة والظرف ، وقصد المؤلفين خصوصاً اثارة الشعب الانكليزي واطلاعه على ما سلف من امجاد المنقبين الوطنيين ، فاستمالة معززي المعارف الاغنياء الى الاهتمام بتنقيبات مستقبلة . فنحن ننصح بمطالعة هذا المجلد ، بنصه ، وصوره ، ورسومه ، لجميع قرائنا الشرقيين عامة ، ولاهل الموصل والعراقيين خاصة . س . ر .

A. Yusuf Ali : The personality of Muhammad the prophet. *A speech delivered in London at the festival of Id-ul-Azha*, 20 th *May* 1929. *Progressive Islam Pamphlet n° 4, june* 1929. *London. Luzac and C°. Price* : 1 /-

شخصية النبي محمد

شاء احد مسلمي الهند من طلاب الجامعات الانكليزية ان يؤلف في شخصية محمد ، ولكنه لم يستند في درسه الا الى المعلومات التقليدية التي يراها المطالع في « سيرة » ابن هشام وما تبعها من تآليف المسلمين ، فلم يأتِ بشيء جديد . هـ . ل .

André Baudrillart : Mœurs païennes et mœurs chrétiennes. I. La famille dans l'antiquité et aux premiers siècles. *in*-12°,240*pp*. *Prix* : 12 *fs. Paris, Bloud et Gay*, 1929.

اخلاق وثنية واخلاق مسيحية

ليس من السهل ان يدرس الانسان عادات عصر لم يعش فيه بينا هو يكاد يجهل عادات عصره ومحيطه . هذا ما دفع حضرة المؤلف الى التعمق في ابحاثه والتوسع في دروسه حتى تضلع من موضوعه غاية التضلع فالقى سنة ١٩٢٨ ، في المعهد الكاثوليكي في باريس ثماني محاضرات ، اجتهد فيها في تحديد الانقلابات التي احدثتها النصرانية في عادات الوثنيين لاسيما ، من حيث العلاقات

الاجتماعية . وقد بدأ بجمعها مخصصاً هذا المجلد بنواة الهيئة الاجتماعية الا وهي العائلة . فكان كتابه من افيد ما يُنشر من الكتب في عصرنا ج.ل.

Legrain (Gaston) : Les cahiers de l'échiquier français, 1er *vol.* 1925-28, *in-8° de* 512 *pp. Prix* : 60 *fs. Paris, Editions Bossard.*

ابحاث في لعبة الشطرنج

هو مجلد كبير يجمع اعداد نشرة « الشطرنج الفرنساوي» للسنين ١٩٢٥— ١٩٢٨،وفيه كثير من المسائل مع حلها مما يغتبط به غواة هذا اللعب اللذيذ . وتسهيلاً للاستفادة من محتويات المجلد الكثيرة جعل له ثلاثة فهارس ، فجمع هكذا بين اللذة والفائدة . ج. ل.

Gino Loria : Histoire des Sciences mathématiques dans l'antiquité hellénique. *in-8° de* 215 *pp. Prix* : 30 *fs. Paris, Gauthier-Villars et Cie.*

تاريخ العلوم الرياضية في العصور اليونانية القديمة

هذا المجلد حلقة من سلسلة العلم والمدنيـــة ، خصه المؤلف ، وهو استاذ الرياضيات العالية في جامعة جنوى ، بتاريخ هذه العلوم منذ طاليس (٦٤٠ــ٥٤٨ ق.م.) الى هارون الاسكندري (القرن الثاني للمسيح) وقد ادخل فيه بعض المناظرات الرياضية وبسط بعض المسائل المهمة وحلها .

Gabriel Hanotaux : Regards sur l'Egypte et la Palestine. *in-12°*, 282 *pp.* 1929. *Paris, Plon.*

نظرات في مصر وفلسطين

دعا ملك مصر المؤلف الى زيارة بلاده قائلاً : « تعالَ الى مصري ، يا مسيو هانوتو ، فنحن بحاجة الى تاريخ للأمة المصرية يكون على مثال تاريخك الكبير الذي خصصته بالامة الفرنساوية ! » فلبى المؤلف الدعوة الملكية وقام برحلة الى مصر ، فالى فلسطين . وهو يصف تفاصيل هاتين الرحلتين بكل ما في قلمه من رشاقة وما في ذهنه من استعداد للاعجاب . وان له كلمة جميلة (ص ٢٤) في وصف البرية المصرية حول الدلتا وما اثارته في نفسه من تأثير نهضة المصريين

للعمل ، بينا كان القطار ينقله الى القاهرة. اما هنا فشاهد كل الابواب مفتوحة امامه ، ونال ما لم ينله غيره من وسائل وتسهيلات اطلعته على كل ما شاء من الآثار ، وزوّدته بكل مـا اراد من المعلومات . وان من الحسن ان ينشر رجل محظوظ ، كالمسيو هانوتو ، كل ما عرفه فيطلع على ذلك من ليس لهم حظه . وهذه التسهيلات ، مـع شخصية المؤلف ، تسمو بالكتاب المـذكور عن محيط كتب الرحلات الاعتيادية . ج. ل.

Les Manuscrits arabes de l'Escurial, *d'après les notes de* **H. Derenbourg**, *par* **Lévi-Provençal.** *Paris, Geuthner*, 1928, *gd in 4°, 329 pp.*

مخطوطات الاسكوريال العربية

اول من وضع قائمة علمية لمخطوطات الاسكوريال العربيـة هو الكاهن الماروني مخائيل الغزيري ، في مؤلفـه المعنون المكتبة العربية الاسبانية في الاسكوريال : *Bibliotheca arabico-Hispana Escurialensis* المطبوع في مدريد بمجلدين كبيرين (١٧٦٠ — ١٧٧٠) وفيه وصف ١٨٥٢ مخطوطاً عربياً. وكان كتابه في زمانه ، على ما وقع فيه من الاغلاط ، آيةً بحسن الطبع وبما حواه من تعليقات تاريخية وادبية ، وقد حاز به فضل السابق المتوغل في دغـل الغاب ليمهّد الطريق لغيره . فتقفى آثاره وجاوزها العلامـة هارتويغ درينبورغ استاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الحية في باريس ، وطبع في السنة ١٨٨٤ المجلد الاول من كتاب عنونه « مخطوطات الاسكوريال العربية » . عاد فيه الى اعمال الغزيري واستفاد منها ، فجاء كتابه قائمةً جديدة للمخطوطات العربية في المكتبة الملكية الاسبانية ، خصّه بكتب الصرف والبلاغة والشعر واللغة والادب وفقه اللغة والفلسفة . وفي السنة ١٩٠٣ نشر جزءاً من المجلّد الثاني وصف فيه كتب الاخلاق والسياسة

وانتقل درنبورغ الى رحمته تعالى ، فخلفه المستشرق لفي بروفنسال مـدير معهد الدروس العليا المغربية والاستاذ في معهد الادب في كلية الجزائر ، وناشر كتاب اخبار المهدي حديثاً ، (راجع المشرق ٢٧ [١٩٢٩] ٣١٤) توغل في

اوراق درينبورغ ، واجهد في استخراج الكتاب الذي اشرنا اليه في عنوان هذه الكلمة ، وخصّه بالكتب الدينية والجغرافية والتاريخية ، من النمرة ١٧٥٦ الى ١٨٥٢ ، ووعد بتكملة نشر المجلد الثاني المخصوصة بالطب والتاريخ الطبيعي والرياضيات والفقه ، وباتباعه بالمجلد الرابع والاخير الحاوي مع الفهارس وصف ما اهمل ذكره من المجموعة في المجلدات الثلاثة الاولى . ومن فوائد المجلد الثالث انه يهدينا الى معرفة اصل الكتب الموجودة حالًا في الاسكوريال. وفي صدره رسما صحيفتين من قرءان مولاي زيدان سليل الدولة السعدية المراكشية. غُلِب هذا الامير على امره في السنة ١٦١٢ وأبحر وكنوزه وكتبه ، فوقع في قبضة القرصان الاسبان فاستولوا على كتبه واودعوها مكتبة الاسكوريال واكثرها مختوم بختم سلاطين بني سعد. فاغتنت دار الكتب الملكية الاسبانية بما لم يكن يحلم به اصحابها ، فضلًا عمّا كان فيها سابقاً من الكتب العربية. ولكن في ٧ حزيران ١٦٧١ اضطرمت النار في الاسكوريال والتهمت جزءًا من المخطوطات العربية وابقت على نحو الفين منها ، هي التي وصفها الغزيري ثم درنبورغ ثم اخيرًا لڤي بروڤنسال خصّ كل مخطوط باسمه ، واسم مؤلفه ، وتاريخ وفاته (الصليب المرسوم بعد اسم المؤلف دليل على تاريخ الوفاة لا على الولادة كما توهم بعضهم) ، وبذكر عبارة منه وتاريخ كتابته ، ووصف نوع خطه وعدد صفحاته وطولها وعرضها وعدد سطورها. واحال القارئ غالباً الى تاريخ بروكلمان للآداب العربية والى الموسوعة الاسلامية . وقد لفت نظرنا في ذيل قائمة المخطوطات الدينية وصف عشرة كتب مسيحية بلغات شتى . فنشكر للعلامة لڤي بروڤنسال عنايته بالمخطوطات العربية ، ونتمنى له انجاز مشروعه سريعاً فيؤازر حركة النشر العربية المجهزة بسائر المعدات العلمية. ف . ت.

كتاب اللؤلؤ المنضود في دفع نقود

بقلم الشيخ امين ظاهر خيرالله

مطبعة الاجتهاد بيروت ، ١٩٣٩ – ص ١٥١ ، وسط

ليس المراد «بدفع النقود» تأدية المال ، بل ردّ انتقادات خطأ بها احد ادباء المهاجرين بعض آراء لوالد المؤلف ، المرحوم الشيخ ظاهر خيرالله ، ظهرت

في كتابه « المنهاج السوي في التخريج اللغوي » (اطلب وصفه في « المشرق » ٢٦ [١٩٢٧] : ٢١٦) فردّ عليه الشيخ امين ، بعد ان اورد كلامه بحرفه ، مستنداً الى المعاجم الكبيرة ، والقياس ، والعرف المشهور . فدافع عن ابيه شأن الابناء البرَرة ، وافاد محبي الابحاث اللغوية افادةً قد تخلو من اللذة لان ما في الاسلوب من تكلّف ظاهر حتى في العنوان ، يفقد المطالع صبره احياناً ، فيترك الكتاب ف.١٠.ب

الدليل الامين في الصحة والمرض

تأليف وترجمة الدكتور شكري بوتاجي

المطبعة المصرية بمصر ، ص ٦٢٦ — مصوَّر

ان الغاية الاولى من علم الطب هي اطالة الحياة بالتوقّي من كل علةٍ مولدة لمرض . فاذا قويت جراثيم الاوبئة على البنية البدنية او اذا اعترى الانسان مرضٌ ، فعلى تلميذ اسكولاب ان يكتشف الادلّة على حقيقة الداء ، ويشخص حالته ، ليصف له الدواء الناجع ، إمّا للشفاء من المرض او لتخفيف وطأته ، او بالوقاية من تفشيه من انسان الى انسان . هذا هو برنامج علم الوقاية او علم الصحة . وقد اتخذه الدكتور بوتاجي رسماً له في انشاء كتابه « الدليل الامين في الصحة والمرض » ولم يهتم بعلم الوقاية والصحة فحسب ، بل جمع ايضاً في كتابه فصول علم الطب ورتبها طبقاً للنظام المعهود في التدريس . فانعم النظر في الانسان وبنيته ووظائفها الطبيعية ، وتكلم على العناصر الناقلة لجراثيم المرض كالراجبيات ، وعلى تشخيص الامراض وعلاجها ، ووضع لها جداول متوخياً في كل ذلك تقريب فهمها من العوامّ ليكونوا على بصيرة من شأنها ويستعينوا عليها بالطب في حينه . فليس اذن الكتاب موضوعاً للاختصاصيين من الاطباء . ومع ذلك فلم يحجم صاحبه عن وضع فصل خاص بالاقرباذين ، اي وصف العقاقير الطبية وتركيبها . امّا الجزء الثالث من الكتاب فيبحث في امراض النساء والاطفال وفي الحبل والولادة . وللمؤلف في هذا الصدد نصائح غزيرة دقيقة قيّمة مفيدة كثيراً لوقاية الاطفال وحفظ صحتهم منذ دخولهم في العالم . والجزء الرابع يشمل بابين : اولهما في فن التمريض ، والثاني في فنّ الاسعاف ،

مع ما يقتضيه من القواعد الاولية وطرق الاسعاف المستعجلة وتضميد الجروح ولغة الكتاب ، على بساطتها وقرب منالها من عامة القرّاء ، انيقة فصحى والفضل لصاحبها عظيم في تسمية الاعضاء والاشياء باسمها العربي الصرف ، مما يعود بالخدمات الجليلة على اطباء الشرق عموماً اذ يمكنهم من التعبير عن افكارهم بلغة البلاد . اما منافع الكتاب لامهات العائلات فاكثر من ان نصفها في هذه العجالة ، وهي التي تجعله جديراً بان يحتفظ به الاب والام بمكتبتهما لهما وحدهما .

جورج بدر

المساعد في « اوتيل ديو دي فرانس » بيروت

غرامطيق اللغة الارامية السريانية (صرف ونحو)

تأليف القس بولس الكفرنيسي الراهب اللبناني الماروني

قطع ١٢ ، في ٤٤٨ صفحة — يباع في المطبعة الكاثوليكية .

الثمن ١٢٥ غ . ل . س والخارج ٦ شلينات

انا نحث جميع الكهنة والاكليريكيين في الطائفة المارونية والسريانية على اقتناء هذا الكتاب ان ارادوا معرفة لغتهم الطقسية معرفة جيدة . فهو غرامطيق جامع لقواعد الصرف والنحو ، مكتوب بطريقة تعليمية ، واضح في سرد القواعد ، متبسط في الامثلة المترجمة كلها الى العربية ، متوسع في التمارين . مما يدل على ان حضرة المؤلف زاول تعليم كتابه مدة طويلة قبل ان يطبعه . على اننا لا نعلم هل تكون فائدة هذا الغرامطيق جزيلة للاوربيين ؟ وذلك لانه مكتوب باللغة العربية ؛ وقد احتفظ المؤلف بالطريقة والتعابير الخاصة بالغرامطيق العربي . ومما يؤسف له ان حضرته لم يستفد من اعمال الاوربيين في مقابلة غرامطيقات اللغات السامية ومنها مؤلفات نولدكه (*Noeldeke*) ودوفال (*Duval*) في الغرامطيق السرياني . ومما لفت نظرنا ان المؤلف يذكر (ص ٥) ان السريانيين لا يميزون بين الكسرة الخفيفة والكسرة الثقيلة وكذلك بين الضمتين الخفيفة والثقيلة بسبب اخذهم الحروف الصوتية عن اليونانية ، والصواب انهم حين اخذهم الحروف لم يكونوا يميزون بين الكسرتين والضمتين ، والا لما تعذر عليهم ان يأخذوا اكثر مما اخذوا من الحروف الصوتية عن اليونان ، وعند هؤلاء

اكثر من خمسة. ثم عند ذكره احدى قواعد الألف (ص ١٦) يسرد ٩ امثلة يقول فيها ان الالف اصلية، ولا اراها كذلك الّا في اللفظتين حُلاوا و ٬اللا فلا ارى من ثمّ لزوماً لتلك القاعدة. وهو يقول في المقدمة ان اللغة الفينيقية من اللغات الارامية. اما البراهين التي يوردها على ذلك فاكثرها خارج عن اللغة، وان من يتعمّق في الدرس اللغوي نفسه يرى ان الفينيقية اقرب الى العبرانية منها الى الارامية. وعلى كل فان في الكتاب من وفرة الموادّ وحسن التنسيق ووضوح التأليف ما يستحق كل رواج.

ل. ريغوله

رحلة تاريخية الى اميركة الجنوبية

بقلم الخوري بطرس العنداري

مطبعة (ابو الهول) · سان باولو ١٩٢٩

هذا كتاب اشبه بجريدة السفر، وبترجمة المؤلف لنفسه، اوقفنا فيه صاحبه على سيرة حياته وعلى احوال اسرته واقربائه وذويه، وجال وايانا بين البترون واميركة الجنوبية عن طريق الديمان، والاسكندرية، وروما، وجبل طارق والسنيكال، والبرازيل، والارجنتين، ورقف وقفة المدهش المتحمّس لكل منظر رآه لاول مرة، فسحره جمال الاسكندرية، واخذت حركة مرفأ مرسيلية من لبّه كل مأخذ، وقال في الشعب البرازيلي انه اعظم شعوب الارض احساناً، على ان سياحته الطويلة لم تلاقِ في كل زمان ومكان ما يروق فحسب. فاعلمنا انه بعد ان اقام ذبيحة القداس على ظهر المركب، اضطر الى اقامتها في احدى الغرف توقياً من تهكم المتهكمين. وقد يترنح صدره لكل منظر جميل ويحرك يراعته فيطلقها في ميدان الوصف والتاريخ، فيخبرنا الاخبار ويوقفنا على بعض احوال البلاد حين يحط فيها رحاله فحديثه مفيد لذيذ انيس خاصة اذا ما وصف البرازيل وعاداتها. ولهذا الكتاب ميزة نادرة وهو انه يكلمنا ببعض الاسهاب عن المهاجرين المتشتتين في البرازيل والارجنتين، وفيه صور عديدة وهو انيق الطبع بسيط العبارة سائغ القراءة.

ف. ت.

أهمّ حوادث الشرق في شهر

١٥ تموز — ١٥ ايلول

رومية — امتاز كاثوليك شرقنا العزيز باعرابهم عن محبتهم وولائهم لاب المؤمنين اجمعين ، وخليفة المسيح على الارض ، بمناسبة يوبيله الكهنوتي . فسارت اليه الركبان من رجالات الاكليروس العظـام . واستقبلهم الحبر الاعظم بحنو ومسرّة ؛ ومن آيات محبته لشرقنا في الشهرين الماضيين الكلام العسجدي الذي اجاب به عن خطاب غبطة البطريرك السرياني ابان توشيحه الباليوم (٦ آب) والرسالة التي وجهها خصيصاً الى غبطة بطريرك الروم الكاثوليك (١٩ تموز)

سورية ولبنان — وكانت اخبار بلادنا السورية اللبنانية مسرة على الاجمال بالرغم من بعض حوادث التلصص بالبقاع وعلى الحـدود الشمالية ، ولم تكن المظاهرات التي جرت في المدن مناسبة لحوادث فلسطين المفجعة مما اثّر ضبابه في جوّ البلاد الصافي . ولعل حركة ارتياد المصريين وغيرهم من الاجانب ربوع لبنان في موسم هذا العام لم تكد تفرق عما كانت عليه في السنين المـاضية . ولعل شكوى بعضهم قلة ارباح المصايف اجمـالًا انما علتها الحقيقية ، لا قلة عـدد المصطافين ، ولكن كثرة المصايف ، وقـد تسابقت القرى في اسقاط اسعار الايجار لئلا تبقى الدور خالية . ولا بد ان تكون قد اثرت هذه المزاحمة في اقتصاديات الفنادق الكبرى .

وقدمت بلادنا البعثة الفنيـة لدرس مسألة مصب بترول الموصل وغايتهـا اعادة النظر في درس الشاطئ البحري من حيفا الى الاسكندرونة لتعيين النقط التي تصلح منافذ للانابيب . وقدمت ايضاً بعثة من المهندسين الافرنسيين لتبحث في مد الخط الحديدي بين حمص وتدمر .

وراقنا ما كتبته الجرائد عن المعرض الصناعي الدمشقي . فتح يوم الجمعة ٦ ايلول ، وعرضت فيه انواع الانسجة والرياش والاواني النحاسية والزجاجية والمزركشات الشهيرة والمأكولات الشرقية اللذيذة .

حوادث فلسطين – انعقد المؤتمر الصهيوني السادس في زوريخ واسفر عن اقتراحات شتى ، منها اسكان الف عائلة كل سنة في فلسطين ، واشغال الفي عائلة كل سنة بالصناعة والمساعدة على مهاجرة عشرين الف اسرائيلي في السنة. وتحدثوا بوضع برنامج لعشر سنين بميزانية مليون جنيه لكل سنة وابتياع الاراضي جهد ما تصل اليه الطاقة.

ولم تكن وقائع السنين الاخيرة لتساعد على الشكّ بامكان ازدياد عدد المهاجرين ، والاحصاء الذي نشرته الحكومة في فلسطين شاهد على تزايد اليهود السنوي ، كما ترى :

في تموز سنة ١٩٢٩		في تموز سنة ١٩٢٨	
المسلمون	٥٧٢'٤٤٣	المسلمون	٥٧٧'٦٤٩
اليهود	١٥٤'٣٣٠	اليهود	١٤٩'٥٥٤
المسيحيون	٠٨٠'٢٢٥	المسيحيون	٠٨٠'٢٢٥
طوائف اخرى	٠٠٩'٠٦٦	طوائف اخرى	٠٠٨'٨٠٠
المجموع	٨١٦'٠٦٤	المجموع	٨١٦'٢٢٨

ونشرت الصحف في شهر آب نداء المؤتمر الصهيوني في القدس في سبيل المبكى ، وقراره بتخصيص مليون جنيه لمشترى الاراضي في فلسطين.

وكان الوطنيون الفلسطينيون من طرفهم يشكون امرهم الى اولياء الامر. وكل من الفريقين اخذ يتأهب لملاقاة خصمه الى ان وقع اخيراً حادث المبكى ، وليس هو الاول في نوعه انما صار في هذه المرة (٢٣ آب) شرارة اضرمت نار الحرب الاهلية. وان الوقائع لاقرب منّا زماناً ومكاناً من ان نقف على تفاصيلها والحكم العرفي لجم الصحافة وبتر الرسائل.

وقد اهتمّ المسلمون لامر البُراق لما يعهدون لهم فيه من حقوق. على ان الاراضي المقدسة على ما تناله من احترام الشعوب المؤمنة بالله الاوحد هي عند المسيحيين بمنزلة لا مزيد عليها من الكرامة. فلذلك قد يكون مرجع امرها طبعاً ، الى اعظم ممثل للمسيحية على الارض ، الى الاب الاقدس. وهذا ما اقره مسلمو بيروت لما زار اعيانهم الديمان (١٣ ايلول) ورغبوا الى البطريرك الماروني ان يرفع شكواهم الى البابا ليحفظ فيها لكل ذي حق حقه. ف. ت